بُحيرَة المَلائكة

محمد فتيلينة

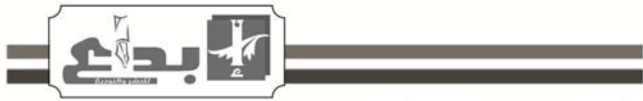
رواية

بحـيرة الملائكة

بحيرة الملائكة

محمد فتيلينة





الكتاب: بحيرة الملائكة

المؤلف: محمد فتيلنه

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

مراجعة لغوية: إيمان الدواخلي

رقم الإيداع: 7926/2013

الترقيم الدولي: 978-977-85043-6-1

الإشراف العام: عيد إبراهيم

محمد عبد الجواد

تنسيق وإخراج داخلي: حسين طه - بيروت

hussein.taha@live.com- 009613644081

مدير قسم النشر: فتحي المزين

تلفون: 01282288056 - fathy66666666@yahoo.com

دار إبداع: العجوزة - ٦٠ عمارات الإعلام، خلف السيرك القومي،

الدور الرابع، شقة ٤٠٧ . هاتف: 0233044831

البريد الالكتروني: ibda3666@gmail.com

... قبل أن تأخذ الأقدام هذا الجسد النّحيف إلى محطة القطار لـ:شومبيري، ها هو يسمع ساعي البريد ينادي عليه بصوت اعتاده:

- سيد لامير، كم مرّة أخبرتك بأن تفرغ صندوق رسائلك، لكي أجد على الأقل مكانا لوضع بريدك.

- عُذرا يا جون.. تعلم أنّه، ومنذ فترة السجن الرّهيبة تلك. ما عُدت أحفل بالذّاكرة التي عهدتَها منذ أعوام...

أخذ لامير الرّسالة، وإذ به حين فتحها، يشتم منها رائحة مارغريت، ليبدأ القراءة:

عزيزي لامير

وصلت حيث وصل قلبك. حيث وشاح الكنيسة الذي كنت ترتديه، لتلج إلى الزّمن الجميل. وها هو عطرك ما زال مختزنا في القرون العتيقة... وها هي آثار حذائك اللاّمع، الذي طالما أغرى الزّملاء، لا تزال مُلتصقة في المهاد الرطب لبحيرة "بورجي"... بل ها هي بقايا قُصاصات أوراقك، التي ما فتئت تفاخر بأصالتها على جانبي البحيرة والتي تركتـ...

وقبل أن يُكمل قراءة الرّسالة، عادت به الذّاكرة إلى أيام قريبةٍ لن ينساها، والتي بدأت مع مكالمة نور:

بحيرة الملائكة

1

أخذ نور هاتفه قائلاً:

- ألو... كيف هي أحوالك؟ ها أنا أكلّمك بعدما يئست من تلقي مكالماتك. لأكثر من يومين لم أسمع صوتك، لمَ كل هذا الجفاء؟

أجاب لامير باستغراب:

- عن أي جفاء تتحدّث؟ فها أنا في طريقي إلى تغيير شريحة جوّالي . لم أعُد إلاّ مُستقْبلاً للمكالمات، أي أنني سأُصبح بخيلاً رغماً عنّي... لا أستطيع الاتّصال بك ولا بسواك.

وكأن الصّديق اقتنع بجواب لامير.. ليُعقّب:

- عموما، أنتظر مكالمتك.

بخطاه الهادئة ومشيته الهوينى، انتقل لامير إلى المحل أو شبه الكشك، وكله اعتقاد أنّ الدّنيا بأسرها تُبصرُ - بعين الفضول - إلى هندامه الجميل، الذي غلِب عليه السّواد، تماماً كلون شعره الذي لم يحتج قط إلى مشط. كل هذا السّواد لا يُكدّر سكونه إلاّ نقاءُ قميصه الأبيض، الذي يوحي إلى الدّنيا بسريرةٍ نقية.

واصل الخُطى في شارعٍ لا يكاد يُسمعُ فيه إلاّ صدى حذائه اللاّمع، وكأنّه ناقوس أحد الحواريين، داعيا العُبّاد إلى ديرهم.. الصدى لا يزال يُسمع برغم الرّاجلين والرّاجلات، الغاديات والرّائحات وعطور المسك الفرنسي المحيطة بهن. إنّ الشارع لم يعُد يصغي إلاّ لخطاه الملكية، هذه الخُطى التي وصلت به، في حدود العاشرة إلى غايته. في صباحٍ بدأت شمسه في المغيب، وأُفق السّماء تلاشى وكادت السّحب تسودّ، لتعلن ليلاً بعيداً عن أوانه، إنّها سُحب مطرٍ، لا ريب في ذلك.

دخل هادئاً وهمّة الشباب تسبقه دائماً، وعلى مُحيّاه وداعة ورقّة، باعثاً بلسان ملؤه العُذوبة أحلى ما يدّخر من تحايا، نحو صاحب المحل ومن هم بالجوار:

- تحيةٌ صباحية ملؤها الود إلى أعزّ الأحبة... أتعْلمْ؟

وهو يُبصر إلى فتاتين، وبإزائهما شاب وسيم وكهلٌ عبوس:

- أنني كلما دخلت إلى محلّك الصغير، المـُحاط بالورود، في هذا الرّكن من الشّارع في وسط المدينة، لَكأنني أنظر إلى نجمٍ وحيد محاطٌ ببدورٍ كلّها غيرةٌ منه.

ويستطرد في القول..

- أتعرف لمَ البدور منه تغاريا عمي عزيز..؟

- نعم.

ليضيف العم عزيز:

... فقد سبق وسمعت من قبل إطراءك هذا... لأنّ النجم (يا سيدي) أكثر منها سناءً.

ليُجيب لامير، وإذ بالغرور يطغى على ثغره وإحساسه:

- ليس ذلك فحسب - وأحفظ عنّي مرّةً أخرى- بل لأن العيون كُلّها تُبصر إليه من دون أن تحفل بمن هم أكثر منه سناءً، لأن سنا البدور - يا عمي عزيز- لا يحيا إلا لليالِ قليلة...

أحدث هذا الجواب الملئ بالرّقة والرّومانسية في الأفئدة، التي أصغت إليه، ما أحدث... فروح الجمال فيه أيقظت بقبسٍ من رضاب ثغر لامير كل الشاردين. ثغر لامير الملئ بترجمة مكامن النّفس المولعة بالجمال - دوماً - ورديفه، فرديف الجمال هو الإنسان، الإنسان بحق أو هكذا يعتقد لامير.

ابتسم الجميع من هذا الحديث الجميل، ولم يجد بعد هذه الابتسامات إلاّ مكافأة غروره الداخلي بابتسامة لم يجد لإيقافها سلطاناً، ولم يعها إلاّ عزيز، الذي التفت إليه، وبصوت هادئ ونبرة أليفةٍ تسربت إلى قلب لامير قال:

.. هل تحتاج إلى جوّال آخر؟

أجاب لامير، وجوّاله بين يديه مُثقلاً محموماً، بتنهداتٍ ما أخفّ منها إلاّ النسائم التي دخلت إلى المحل، بعد رتابة ٍلم تُنشطها إلاّ تجاذبات الأحاديث:

- ربّما حاجتي إلى إصلاح ما بداخل الجوّال أكثر. فشريحة الهاتف لم تعد تبعثُ بصوتي و...

وبدأ الحديث عمّا سبّبه له هذا العطب... ومع تسارع الحديث وإطالة الشرح، قاطعه صاحب المحل وهو يُحدّق في وجهه بابتسامة ظاهرة طاهرةٍ، وكأنّه يُخفي عنه سروراً لشيءٍ لا يدركه لامير. استغرب لامير تمتمات عزيز المخفية، والتي كاد يسمع همسها لفرط ما فضحت صاحبها قائلاً:

- هه؟ متى أعود إليك لآخذها؟... أظنّني أصبحت، لفرط ما أستعمل الهاتف، في عجلة من أمري. كما أنك تدرك حاجة الطّالب - والتّاجر - إلى كلّ ثانية...

وقبل أن يجيب عزيز، حمل في كفّه التي أغلقها بإحكام لتستسلم إلى كفّ لامير. مُعطيا إياه قطعةً فضيةً، وهو يهمسُ في أذنه:

- هذه هدية المحل أُعطيت لك.

وأضاف:

- لأنني أُدرك اهتمامك بمن هو منقوشٌ فيها (وهو يُقرّبها من عيني لامير) ورفيقه في وجهه الآخر، ولا يخفى عليّ ولعك بكُتبهما التي ترافقك في كلّ مرّة بعد مُغادرتك.

ولأَكونَ صاحب ذمة:هي هدية دار النشر التي أتعامل معها.

ساد أعماق لامير فيضٌ دافقٌ من الرّضا ممزوجٌ بالدّعة، وشيءٌ من الخوف. خوفٌ من الآتي ربّما.. لكن تلك السكينة تغمر، وإنْ كان قلّما يشعُر بها.. إنّها سكينةٌ مؤقتة، إنّها أشبه بذلك الصوت الشجيّ الخفي الجميل، المُرافقُ له منذ الصبا. بل هو صوت الصبا صوت الهدوء...

حمل لامير تلك القطعة.. كاللُّجين هيَ.. قيّمةٌ لأنّها جميلة، واستشعرها، وفي يده ثقلها لتحتوي كلّ كفّه. هذه الكف التي ازدادت بياضا كلما أبصرت واحتوت تلك القطعة. أدارها من وجهيها، وكأنّه يستنطق كل شِقْفةٍ، بل كل خيطٍ منها.. كلّ حركة دائرية من نقوشها الدّقيقة في قطرها، الواسعة البارزة في عُمقها... جميلةٌ هيَ كثغْر من أحب، تلك التي أحبّها قبل أن يعيَ الحب بين حدائق الصبا، فترة الأحلام، فترة الحي وأبنائه. إيهٍ على الحي، كان لامير يعتقدُ - مثلما يعتقد أقرانه - أنّ الحي وأبناء الحي كُلّهم أُسرةٌ واحدة، أنّ تلك الجدران ما هي إلاّ أستار الغُرف، وما تلك الطُرقات إلاّ بقايا أطعمةٍ سوف تزيلها الأُم أو العمّة أو حتى الجدّة، لتضعها في زاوية القُمامة.

بمُجرّد أنْ رجع بتفكيره، الذي أخذه إلى نسائم الصبا، حتى رأى أكياس القُمامة الفارغة تُحيطُ بالحيّ حقاً، وكأنّها أشبه بلوحة (غويا):"الثالث من مايو" وبأشلائها المتراكمة.

ابتعد لامير بخطاه التي ازدادت تثاقلاً، وكأنّها لم تعُد تقوى على حمله في طُرُقات مدينة إقامته، شومبيري الفرنسية. لقد أصبح مُتعباً بحق، وكأنّ الكرسي يناديه، ذلك الخشبي العريض، الذي يراه كظلٍ على جانبي البحيرة الوديعة المدعوة "بورجي"، وبقايا من جرائد تُحيط به، ووُريقاتٌ تساقطت. رُبّما قرأت أبراج الخريف، والذي بعث معها بإشاراته الأولى، ربّما خريفُ عُمرٍ ذلك الآتي.

سابق - لتعبه - خُطاه المُثقلة، كالشيْخِ مُتّكِئاً على عصاً، توهّمها لفرط التّعب والإرهاق. جلس يحمل من جهةٍ هاتفه، الذي خلا من شريحته، وبين أصابعه كنزه الذي أُهديَ إليه. وما فتئ أن هوى هاتفه من يده، لينام بين قِطع الخشب، التي جعلت من ألواح الكرسي حقول صيف كأنّها حُصِدَتْ لتوّها، ولم يبق إلاّ أثر الفصول الأربعة، بأمطارها وأزهارها، وقبل ذلك ببقايا زنبقاتٍ من موسمٍ آفل.

مع هذه الجلسة، وهذا السكون الذي رافقته رياح استعارها الزمن من ذكريات الملاّحين ومن كنوز الشواطئ المنسية.. أطبق صمتٌ على الجوّ السائد. صمتٌ كئيبٌ رهيب، رافقته قطرةٌ من السّماء.

وفي لمح البصر، تقدّم فتىً يافعاً بسرعةٍ أقرب إلى البرق، ليخْطِفَ من يد لامير جوّاله الذي كان في دفئها، ليسحب الفتى القوّي البنية لامير الذي أنحلته اللّيالي. فتدحرج لأمتارٍ من كرسيه الخشبي، لصدْمة الدّفعِ تلك. ليميل كعُلْبةٍ مُربّعةٍ نحو البُحيرة، وأنفاسه تكاد تسابق الهواء المنتشر حوله.

وغرق هذا الجسم المرهق، ولم ينفع تخبّط الأقدام والأيادي، ولا حتى تموّجُ الرّأس الذي كُبّل فمهُ فما عاد يقوى على الصُّراخ.

توقّف الشاب الذي تسري في عضلاته أكاسير القوّة. تسمّر ينظر إلى ضحيته، ولم يعُدْ قناعه الأسود الذي فصل جسده عن سريرته، يمنعه من جلاء رؤيته لمشْهدٍ تفاجأ لخروجه بهذا الشكل. لم يجد إلا الوقوف مبهوراً، واجماً، باهتاً.. فمدّ يده نحو قِناعه - الذي أصبح أكثر حِملاً - فنزعه، وما لبث أنْ عرف انّه ارتكب جُرماً.

بعد ثوانٍ من بقائه مبهوراً، عادت غريزة الهروب لتُغذّي قدميه، وانطلق هارباً مثلما كان منطلقاً نحو هاتف لامير.

بحيرة الملائكة

2

سقط هذا الجسم ككُتلةٍ مُرهَقةٍ، فاحتوتها مياه البُحيرة، التي بدأت تُغويها بالدّنوِ شيئاً فشيئاً، نحو عُمْقٍ لا يكاد يُشابهه إلاّ ظلمات المُحيط.

هَوَتْ في لُجّة الضياع كُتلة لامير، وكأنّها رُفاتٌ مجموعة، ملْفوفةٌ بذنب الإنسان الأوّل بالخطيئة الأرضية الأُولى، بقتْل النّفس للنّفس، بإبعاد الرّوح عن الرّوح. روحُ لامير، تراها اختفت؟ تلاشت؟ ما عاد لامير شُعلة الحياة؟ هل أخمدتْها جذْوةُ الماء؟... الماء هذا الفضاء الواسع الذي يكتم الأصوات والأنغام، ها هو يكتم جسد لامير.

تهاوت هذه الرّوح، كأنّها وُريقةٌ تارةً، أو شظيّةٌ تاهت عن رفيقاتها تارةً أُخرى، فلم يُسمع صوت دويّها، ربّما لم تعُد الحياةُ تدُبُّ فيها.

هاهي الرّوح المتدفّقة المحمولةُ في كُتلة لامير تجثو فوق قاع هذا اليمِّ البور. لم تعُد تُحيي هذي الأرض إلاّ تمتماتُ، بدتْ كأنّها فُقَعُ حياةٍ ينبُعُ أنينها من عُمقِ هذا اليم الموات.

إن قلب لامير ما زال ينبض، لا زالت ينابيع الحياة تسري ولم تنضب بعد، بل لا زال يقْوى على حديث نفسه:

- تُرى هل يعفو الموتُ عنّي؟ هل رشتهُ الحياةُ لتُبْقيَني معها؟... لَطالما آمنتُ أنّ الأحلام حياة، وأنّ الملاحِمَ واقِعٌ حي، وأنّ كرامات الصالحين صِدْقٌ وكمال، ولطالما كانت الحياة، لمن يحياها، غريبةً لغيره، حقيقةً في نفسه.

وفي خِضمّ هذه الأريحية وحديث النُبل، الممزوج بالواقع حيناً، وأحايينَ أُخرْ بشيءٍ كبير من الخيال، وبتلك العيون البُنيّة التي لم تعِ بعْدُ سرّ بقائها في رفّ الحياة، كأنّها كُتيبات الموت الذي لا يكاد يدنو على الإطلاق.

أبصر جسداً، لم يُصدّق صورةَ دُنُوّه منه.. لم يعرف أهو أضغاثُ أحلامٍ في حُلْم الاحتضار، أمْ جسدٌ بحقٍ طال له الانتظار. جسدٌ في كومةٍ من لباس الماضي، تحتويه أقمشةٌ سوداء.. ربّما هي سوداء، فما عاد لامير يعرفُ غير السّواد.

جاء الجسدُ كحُلْمٍ مُفكّكٍ، بل كسناء البريق، إذ تطايرت قِطعه أجزاءً حالمة. هل تراها تلك، قطعة لامير الفضّية وهي تهوي في مياه البحيرة بانسياب وغنج، لتصبح في لمح البصر كدرّة، وقد شقها شعاع من آشعة الشمس، وقد اخترق أو بالكاد المياه العذبة، كاختراق المياه ذاتها لجسد لامير؟!. إنها بالتأكيد قطعته الفضية، التي استمرت - مثلما الحال مع لامير - في الغرق نحو القاع المظلم... هل تراها تفكّكت لفقدها كفّ لامير في حيز الماء هذا، وأعادت قطراته لتشكّلها كائناً حيّاً، عاودت قِطْعته اللُّجينية الرّجوع إليه.. إلى حُضن أشواقه؟!..

ها هو جسد الشاعر؛ أو بقايا القطعة اللجينية، يهْوي إليه، آملاً أن يحمله من يده، ويجذبه نحو الأعلى.. نحو السّطح، نحو الهواء والنسيم والحياة.

سابق لامير ثغره وسأله:

- أيّها الشاعر؟... من أيّ زمنٍ أتيت؟

منظر الشاعر جميل، وحديثه رقيقٌ عذب، تماماً كأحلامه التي يبعث بها قلبه.

وهاهي الذّاكرةُ عاودت القُدوم من جديد، لِتبّعث في لامير حياةَ ليالِ العشق، التي أحاط بها النّدامى. أولئك هم كُتُبه المُحيطةُ به في كلّ ليلة، منذ أن مُنِعتْ عن أمثاله أحاديث الفكر وحكايات الأدب، أحاديث الفلْسفة والعشق، منذ أن غلا رغيف الخُبز ورخصت معه الأجساد والذّمم، منذ أن سابقتْ الأفواه الألباب، منذ أنْ عرّتْ نقُود الجَهَلةِ وشاح الفقرِ الجميل المبثوث في الهيفاء والنّجلاء والسّمراء والبيضاء.. وباقي النساء.

لقد أحسّ لامير، منذ الصغر أنّ أرواح كلّ الشُّعراء تذوب في فؤاده وقلبه. لا زال يذكر ما قرأه - لأوّل مرّة - عن شاعره الّذي أنقذه من لُجج الماء 'لامارتين' وهو يقفُ بطلَلِه، بِبُحيرته الوادعة الحالمة:

عندما ألقاني وحيداً قُرب ربّي	راغباً في ربط لمحٍ قبل نحَبي
بين أطلالٍ، أراها بالأسى ملئ	تُراها سوف تُمسي نُصبَ دربي؟
وبقايا من جليدٍ وصيوف	أنست الوادي الصّغير ما بقلبي
وطريقٍ قد وعى كلّ خُطايا	إذْ توارى خلْف أرضٍ أمسكت بي
أو نباتٍ قدْ تغطّى كبحارٍ	موْجها أمسى عليّا دون عُشْبِ

* * *

والبحيرة قد ذَرَتْ ما في يديها	من وُريقاتٍ بأمواجٍ لديها
لم تَعُدْ مرآتها - يا ويحها - تُبْـ	ـدي نضارا، قد رمت ما عليها
مثل أحجارٍ توقّت بالضِفاف	بعْدما أصْفرّت من جانبيها
عُرفُ بلّوطٍ تخفّى بالمغار	إذ حوَتْ اثنان ماتا في يديها

* * *

انتظر لامير، مُحدّقاً بعينٍ عادت إليها الحياة، جواباً ليُصغي إليه، ولكن وكأنّ الموت مُحيطٌ بالجواب... لم يُصغِ لامير إلاّ لِلُجّةٍ بعَثَتْ به إلى سطحِ الماء. ليَجِد نفْسه من الماء إلى الهواء، وكأنّه طائرٌ فرّ من وكره إلى فُلْك السّماء لأمتارٍ عِدّة، فسقط وكأنّه عاد من حيث أتى، ولم يستشعر ألم ما خلّفه سواه، ليستعيد حياة، ما أهدتْهُ لهُ روح الشّاعر.

وقف لامير على أقدام دبّت فيها الحياة، واندهش ليرى أمام عينيه الشّاعر لامارتين، كما يقول الفرنسيون:'en chaire et en os' (بعظمه ولحمه). نظر لامير إلى شاعره الأنيق الجميل النّحيف، وفي عيونه صفاءٌ وجلاء، أَوَتْ في أعماقهما حيرةٌ وريبة. نظر لامير إلى تُحفة الخالق هذه، لتستيقظ أسئلته:

- ما أقعده هنا؟ ما سرّ بُحيرته هذه؟ إلى متى وقوفه بها؟ هل ينتظر - يا تُرى - من يُحب؟ أم يُودّعه؟ تُرى...؟

مع حديثه هذا، ومع جلوس لامارتين وحيداً على حافة بُحيرته، وبين يديه كُتيبه الأحمر الأنيق، استدار بأرجلٍ يحملُها الوقار، ببنْطالٍ رماديّ وحذاءٍ لا يشبِهه إلاّ ما ينتعل لامير، وبرباط عُنق أقرب إلى ظُلمة اللّيل في غُمُوضه، يُخفي الجيد كلّه. وقد غطّى كتفيه معطفٌ أو شبه معطف، جمع السّواد والرّمادي.

تقدّم لامير من مُلْهِمه، ولم يأبه بأساطير الزّمن ورهبة الأُحجية، سائلاً شاعره الذي حلم دوماً برؤيته:

- أيّها الشاعر الحالم، أنا من مُريدي أشعارك ودير عشقك الأزلي، هلاّ عرّفْتني سرّ وقوفك؟

وقبل أن يُصغي لأيّ صدى أو همس، انتفض لامير واهتز، وحيّز الفضاء من حوله، لهبّةِ ريحٍ حملتْ معها - وسط سكون ما حوله - هاتفاً يناديه، بدا خافتاً:

- لن تستطيع الحديث إلى أحدٍ منهم، إنّك ميّت، إنّك لم تولد بعد..

لن يُصغِيَ إليك أحدٌ من هذا الزّمن - إلاّ بقُدّرة الله - إنّه ماضيك وماضي من عرفت ومن عاصرك. لكن استمع لهم، فإنّ كل ما يدور في خلدك يتراءى لك في أفواههم قطْرةً قطرة، سينساب إلى قلب أُذنك، ولك من القَدَرِ هديةُ كتاباتهم. ستجول - لا ريب - معهم وبين أفكارهم، ولن تستطيع لهم رؤيةً! ستصغي لما في خواطرهم. ذلك أنّ ما في الخاطر ما هو إلاّ سطرٌ من وريقاتهم.

عاد لامير إلى نفسه يُسائلها ما هذا الإيحاء والإيماء؟ ما هذه المزوجات؟.. ما عاد لامير يعي ما يجري من حوله، غير أنّه لا يزال ينظر إلى شاعره. لقد انتفض من هزّة الريح تلك.. وكأنّه استشعر رهْبة الزّمن، ليرضى - أخيراً - بحُكم قدرهِ، وبأنّه ما زال حيّاً.. وإنْ كان هذا المشهد في عالم الأحياء والواقع شيئاً من المُحال أن يُصدّق، بل هو المُحال ذاته...

استدار لامير لنفسه ولخلقته، إنّه يؤمن أن الله أعظم، يُحيِي من يشاء ويُميت من يشاء.. ألَمْ يُحْيِ فتية الرّقيم؟ ألمْ يُعِد عُزيرا إلى الحياة بعد قُرابة القرن من الزّمن؟ ألمْ؟.. ألَمْ؟... ولكن تلك أشطُرٌ من النّبُوَة لا يحْفلُ بها إلا قليلاً.

قطعت أفكارُ لامير، هذه المُتراكمة في ذهنه والمُستسلمة - مثله- لحقيقةِ أنّه يعيشُ في غير زمنه، أصداءُ عربةٍ تتقدّمُ نحْوهُ بسرعة، لا تضاهيها إلاّ سرعة ذلك الفتى اليافع الذي رحل به، دون أن يدري، إلى وداعة الشّعراء... صدقت العرب حين قالت:"رُبّ ضارّة نافعة".

دنت العربة في هذا الشّارع الأوربي، المُعبّد بجبال "لوكروز" الصّلبة، والممزوج بقطرات الماء التي تركها قبل ولوج البُحيرة. غير أن الوقت باكرٌ، وكأنّ اليوم يحِنّ أيضاً لفجره، مثلما يحنّ لامير لماضٍ مبكّر.

بدأ سائق العربة بتخفيف سرعته تلك، وكأنّه استسلم لأمر سيده، الذي بدأت ملامحه تظهر. وشيئاً فشيئاً استدار السيد بوجهه، ذلك الدّائري المنير، تماماً كالبدر الذي آوى إليه لامير مراراً حين كان يُخاطب حبيبته، قبل أنْ تأخذه الرِّحال إلى الدّراسة في "جرونوبل". فـ "لأمير" التّلميذ، ذاته "لأمير"

الطّالب، ما زالت قدماه تحِنّ إلى غُبار مدينته الشّديدة الحرّ في صيفها، والباردة في شتائها المُثلج، تماماً كقرّ هذا الشطر من الزّمن الذي رُحِّل إليه. بعدما تعوّدت إسفلت وأسمنت الشّوارع الأوربية، التي أعيتها منذ قرون معارك (بيلنهيم)، ومفاخر نابليون الأول، صاحب اللّسان البديع والبيان الرّفيع، هذا البيان الفرنسي هو ما أغرى لامير بمُغادرة بلدته العربية إلى جرونوبل جامعة الأدب والرّقة، ومن وسطها اتسعت معارفه منذ ثلاثة أعوام، لتشمل كثيراً من أصوله، ومن هؤلاء عزيز الشامي الرّقيق، فلولا رقّته تلك لَمَا أمدّه بقطعة الفضة، التي ما عادت بيده الآن. إنّ ما حملته تلك القطعة من كلا وجهيها أصبح رؤى العين. فهاهو الأمير الجميل (عبد القادر الجزائري)، يطلّ من نافذة عربية، يُنظر إلى بحيرة بورجي، لمبانيها، لأُناسها القلة. ومن خلال هذه المعالم كلّها أبصر لامير المتخفّي عبر سراب الزمن، الذي لا يعيه أيّ آدمي، إلاّ برعايةٍ ربّانية، قد لا يدركها إلاّ أمثال الأمير.. من ابن عربي وسواه.

توقّفت العربة، وكأنّ كلّ شيء معها توقّف، حتى نبضات لامير كادت تتوقّف، لولا أنْ أبصرت عيناه خُطىً تهادت من العربة لامرأة تحمل من الوشاح وقارها، وشاحٍ غطى كلّ شيء من مفاتن الأزمنة، إلاّ تلك الأنامل التي امتدت لتحْمل عقداً ذهبياً، أُهديَ للسيدة من راهبةٍ رافقت الأمير وأهله، حملت التأريخ - للذّكرى - في قلب من المحبّة ذهبيّاً مكتوباً عليه الفاتح من سبتمبر(1848)، وها نحن في الثالث من ديسمبر...

عادت خفيفةً كالملاك الآسر، نحو دفء الدّار التي اختزنها صندوق العربة الغربية، والتي تحمل أفئدة عربية.

عادت عيون لامير لترى لامارتين، وهو يُحدّق - كمن ذُهل - في عين الأمير، لكأنّهما نواةٌ لروح واحدة، تآلفت لتربو كالبان العاشق، يهفو للمحبوب.

تلاقت عيون ألفونس دو لامارتين، هذا الشّاعر الغربي المُتأنّق الشفاف، مع عين الأمير عبد القادر الجزائري، ابن البادية أسير المدينة والمَدَنية الأُوربية.

سمع لامير دقّات قلب الأمير، وهي تبعث بالسّلام للشّاعر الرّقيق، وتُذكّر بما تختزنه، ولسان حالها يُردّد:

"أَهي ذات الرُؤية التي عهِدْتُها، أم هي ملامح آدميّ خانتني صورته؟ أليس هذا شاعرُ الصّفاء؟، بلهو ذات الوجه.. إن رؤيا المؤمن - لله المِنّة - صادقة لا تخيب...".

هذا الصوت المشرقي المُطلّ من الأصل المغربي، كأنّه وحيدٌ في رحلته، وحيدٌ فيما يُخفيه من وشجٍ ووهج.. وَهَجٍ أفل سناؤه من بين يدي لامارتين، هذا الشاعر الذي شغل الرّومانسيين والأمة الفرنسية، فذاع صيته فيها، فهو سفيرها في الدّاخل والخارج. ها هو الآن في شهر البرد من هذا الصقيع، خصمٌ مهزوم، خصمٌ عليلٌ من مشكاة نابليون، التي اتسع نورها في انتخابات هذا العام.

يتنهّد لامارتين أخيراً:

- رَبِحَتْ - على ما يبدو - الانتخابات وخسِرت المبادئ..

لم يَطُل وقوفُ لامارتين طويلاً، ليستشعر ألفةَ هذا الوجه، الذي تدلُّ بداوته على الأصالة والقوّة. أمّا نظراته المليئةُ بالفروسية، فكأنّها تبوح:

فما نظرتُ إلى شيءٍ بدا لي　　　إلاّ وأحباب قلبي دونه راحوا

...

عاد صاحب شذرات الشّعر هذه ليمتطي بهمّةٍ لجام فرسه المُعلّق بيد سائسه، ويأمره بالرّحيل إلى وجهته، نحو سجنٍ في ثوب قصر..

وها هي فرقة الجنود تسير خلفه، وكأنّها لم تحفل ولم تهتم بما يجري؛ بل لكأنّها غائبة عن مسرح القدر. غيّبها الإرهاق والتّعب، فكبّل حوافر أحصنتها، تلك التي تغير مسار طريقها إرضاءً لأُمّ الأمير عبد القادر، وقُبولاً لضيافة "فارتي" رفيقتها. لا ريب أن تتوطّد صحبة المرأتين، فقد رافقتهما هذه الصُحبة من أرض العرب من يابسةٍ شاقة، مروراً ببحرٍ لاجج، وصولاً إلى مرفأ "طولون".

دنت الأخت "فارتي" من الأم، يسبقها همسها العُذري المبحوح:

- سيدتي.. إنّ التّعب كفيلٌ بإغراء الصمت. إلاّ أن إغراء لُطفك يحمل الضيافة على ثغري بإلحاح... فتفضّلي.

أهدت الأم، وهي في العربة، قبس عينها لقُرّتها الأمير. فأبصر إليها، ثم نظر إلى ما في يمينه، إلى القرآن، هذا المصحف الذي كانت الأحكام القضائية - في إمارته - تصْدُر طبقا له، ولا أحد يشكو الجور، وله يخضع نصاً وروحاً، خُضوعَ إجلالٍ وتقديس.

ذكّره - المُصحف - أيضاً بالتدريس وحلقات طلبته، أمّا الأم، وكأنها أصغت لذاته، سرت بصوتها في قلب أُذنه:

- لقد ساعدت الجميع على الدّراسة، وبذلت أقصى الجُهود في المحافظة على الكتب والمخطوطات من الضّياع.

استفاق الأمير من حديث أُمّه ليُجيبها:

- كان هناك أكثر من سببٍ يحدوني إلى بذل هذه الجهود. فالتّدوين أمرٌ شاق يا أُمُ. فيلزم المرء عِدّة أشهرٍ لكتابة نسخة واحدة... نسخةٌ واحدة لا تُغذّي ذهن طالبٍ واحدٍ ليلة واحدة.

غادرت السيدة عرش العربة الوَقور، مُجيبةً الأُخت "فارتي"، لتلْمس بقدميها أرض "بورجي"، التي يبدو خُلُوّها من السكّان جليّاً، وقد لاحت بناظرها الحاد البدوي الوقور، إلى جنديّ يُقدّم التّحية، بحركة النّبل الفرنسي، وكأنّه ألهمها الحديث:

- أُختاه الفاضلة. ذكّرني هذا المُجنّد، ببعض رفاقه الأسرى، الذين كانوا في ديارنا - وبعضهم ما زال - ولا زالت عيونهم الزّرقاء، التي تاهت في فيافينا، مطبوعةً في ذاكرتي، تُزاحم أنفاس رضاهم عن طعم وجباتٍ - ربّما تذوّقوا أفخر منها - شُعورهم بالجوع، لَكأنّ القمح العربي يأوي إلى بُطونٍ استشعرتْ طيبته..

لتُعقّب الأم مُجدّداً:

- أليست البُطون من الأرض وإليها؟

احتضنت الرّاهبة حديث الأم، مُجيبةً إيّاها:

- سيدتي. الجُنود طوعُ أمرك. فأنت في ضيافة أهلها وفرنسا..

عاد الحنين بالأم إلى أرض منبتِها، الحَلْفَاءِ والسّخاء، أرضٌ نبت "الشّيح" فيها، وساد جوّها العنبر واللّيمون وسُحب الياسمين... ذكّرها صوت الرّاهبة بالوديعات الفرنسيات اللائي كنّ في كنفها بأمر الأمير عبد القادر، حين كان سيفه يُدافع عن بيدائه وأهله. لن تنسى الأم - مُطلقاً - حوار الأنفاس والأرواح، برغم إبهام اللّغة، ولكن ما اللّغة هذه إلاّ طارئ في عالم النسيان...

بدأت الشّمس تُهدي رذاذها، كشذراتِ بُحور الشّعر وأنغام العشق، التي أهداها لامارتين، في مثل هذا الشّهر منذ ثلاثين عاما، للمرأة التي آوى إليها قلبه، ولا يزال يذكر حين نظر إليها من شُرُفاتِ عيونها، وهي تقول على هذه الضفة:

- سوف أعالجُ في باريس، وأعِدُك بالمجيء سريعاً..

أجابها يوم ذاك:

- لست مُستعْجِلاً في شيء كاستعجالي في شفائك..

هَوَتْ دموعٌ لنُبُوّة شاعر. فحتى عناقهما الأخير لم يعُد له حولٌ ولا قُوّة، لقد عصر الفناءُ جسد حبيبته، فغادرته ولم تبْق إلاّ تأملاته، وما ترافقه إلاّ أصواتها وبقايا من بُكاءٍ على أطلالها، في هذا النّهر الخالد.

بكى لامارتين، منذ ثلاثين عاماً، على (ريفيلا) مُلهمة شعره وإحساسه. بكى على كلّ ذكرى كانت رفيقتهما، على كلّ همسٍ جمعَ ثغريهما، على كلّ حرف استباح نقاء الورق ليخدش فيه حُزنه وألمه. نظر - يومها - إلى ريفيلا، ثُمّ وضع يده عليها، على كتِف من اختارها لتشاركه العمر الآتي، وإذ به يبوح للصخور التي شاهدتهما سوياً على جانبي بحيرة "بورجي":

- ألا تشهد أيّها الصخر الأصم أنّي أُحبّها؟ أُدرك أنّ لك صوتاً، وما يستنطقه إلاّ الأحباب، وأولئك المؤمنين بالحياة المودعة في أرواحهم العاشقة...

ردّت ريفيلا بابتسامة ما زال لامارتين يحنّ إليها، وقد غطّت بأناملها التي غار من عُذوبتها الحرير، ثغرها المستحيي:

- شاعري الحبيب، أنا المفُوّضة والنّاطقة باسم الصخر والعشب وبقايا الأوراق. وأقول، نيابةً عن مُحاميهم الذي أسميته - لجهلك - بالأصم: أنني أشهد.

وزادت في ضحكتها، بعدما ربى على شفتيها الابتسام:

- ألا تُفرّقُ بين النّعت والاسم أيها اللّغوي؟

واستطردت المُلهمةُ في الحديث، وعيون لامارتين مُحدّقة، وشفاهه ساكنة:

- ما أصمّ الصخرَ إلاّ جفاءُ أمثالنا غداة رؤيته والحديث عليه...

احتوى لامارتين ريفيلا، كنزه الثّمين وازداد لها حُبّاً وولهاً، وقرّب تلك الشفاه التي سكتت لبُرهة، ليقول لها:

- قلبك يستنطق الصخر، وشفاهي تهزأُ منه..

طغى التّأثر، في هذه الهُنيهة، على الشّاعر المُلهم، وإذ به يمدّ يده التي لا تعرف إلاّ الأقلام، نحو سطح البحيرة الهادئ.. ليغرف منها رسائل حب..

فوجئ لامير، وهو واقفٌ بأقدامٍ كأنّها لم تُبلّلْ برطوبة الموت، وهو يساير مُلْهِمه لامارتين، الذي استعاد شيئاً من الذّكريات. ليرى ويستشعر تلك الرّعشة المُثلجة التي سطت على لامارتين، الذي بقي وحيداً... وحيداً، ولم يقو أيّ جزء منه على الحراك، إلاّ شفتيه اليابستين.. كان يتحدّث إلى السّراب، إلى اللّحظات الضائعة، إليها... إلى ريفيلا.

وبدأت وشائجه تبعثُ بما تختزنه:

علـــــى الجبـــــل دومــــــا — **وعلى ضلّ الشجرة العتيقة**

غـــــــــداة الغـــــــــروب — **أحزانـــــي للقلــــب رفيقـــة**

أجـــــــول دون وعـــــــي — **بنــــاظري علـــى الرّوابـــي**

هــــــــوى كلوّحــــــــةٍ — **خيطـــت بـــأثواب الغيـــابِ**

• • •

هاهنـــا عتـــاب السّـــواقي	لِأمـــــــــواج الزّبـــــــدْ
فـــي زحفهـــا مشـــــدودةً	فـــي الظّـــلام بـــلا عـــدد

...

هنـــا البحـــيرة السّـــاكنة	وَسِـــعَتْ مـــاءً، قـــد غفـــا
أيـــن آزور نجمـــةِ المســـا	(تُـــرى) اختارهـــا واصـــطفى؟

...

علـــى قِمـــم هـــذي الجبـــال	المتوّجـــه في الغابـــة المـُظلمة
رمـــى الغســـقْ رغـــم ذاك	آخــــــر أشـــــعّتهُ المـــُؤلمة

...

وعربـــــــــةِ الضّـــــــبابْ	لِمَليكــــــــةِ الخيـــــــالْ
رحلـــــت وقـــــدْ أنــــارتْ	آفاقهـــــــا والمجـــــالْ

...

استعرت خلجات لامير وهو ينزف أسىً، كأنّه عايش كلَّ ما كابده لامارتين، هذا الشّاعر الذي استنطق قلب لامير، المُبصر بعينٍ لا تعي إلاّ الحب. والأمير عبد القادر الموجع الحزين على ماضٍ استيقظ، وأيقظته أنفاس لامارتين الأثيرية، المـُحلّقةِ في سمائه، والتي راحت تغيبُ شيئاً فشيئاً عن أُذنه.

وها هي عربة الأمير تتوارى عن العيون وتمضي في سبيلها، إلى سجنها القسري. مُنْطلِقةً هائمة، تجهل أنّها سائِحَةٌ من شرقِ فرنسا إلى غربها، لِتجعل منها قنينةَ عِطرٍ ينتقِلُ أريجها من الشّرق إلى الغرب.

وبقي لامارتين ينظر عاليا إلى العنان.. إلى ما فوق العنان، يتضرّعُ إلى السّماء، حاملا كفّاً آوت فيهما الأحزان وتدفّقت من بين جَنَبَاتِها سيولٌ من المداد، مثلما هي دموعه الآن تدعو ربّه:

دونمـــــا استنـــــشاقٍ	دخلْـــتُ فـــي مغـــارةِ الضّـــياعْ
مثــــــــل ميّـــــــــتٍ	قــــد تناســـــاه الضّـــــياعْ
فـــــي بيــــــتٍ، نســـــت	اسْـــــمَهُ أبـــــوابُ القِــــلاعْ
عــــــــاودّتُ الــــــدّخول	كمجْهــولٍ فــي بيــت الضّــياعْ
فــــي لَمْـــــحِ البصــــر	أبْصَــــــــرتُ الســـــــتارْ
ليَعــــودَ إلـــيّ جامـــــداً	كشــــــــظايا المنــــــارْ

يـــــا هـــــيكلاً لغِبْطـــــةٍ فـــــي الأرضِ المـــــبْهَمَة

وَا أسفاه! لِمَ سافرتِ لِمَ؟

بكى لامارتين وشكا، وأعاد التّحديق اليائس نحو مأوىً يأوي ما يعتصر قلبه حُزناً وكمدا، لا تُطيقها السّنون حسباناً ولا عدداً. وهو يسْأل النّفسَ المُفجعة جُرحاً:

- ماذا اقترفتُ من ذنبٍ حتى أُكابد الأنّات والأسر في سجن الحياة؟ ما لها الدّنيا أسرفت في كيّ معصمي بأغلال الصدّ والشّك؟ ما لها الأيّامُ تُكابر، إذ أدبرت وكُلّها يقين أنّها تُحسِنُ صُنعاً؟

أفاق لامير، في لحظة ِ بُكاءِ مُلْهِمه ومن غيبوبةِ التّرقبِ والوُقوف على أنفاس الشّاعر المخْدوش الوجدان، المكْسور الخاطر، لِيُحدّث نفسه:ما سر هذا البُكاءِ؟.. ألأنّه فقد حبيباً، حمّل الدّنيا أوزار أحزانه؟ ما ل- لامارتين والأحزان والأسى؟... بُكاءٌ - كهذا - لا يخرج إلاّ من فيه بائسٍ يائس، لم يأو في بطنه قوت يومٍ أو بعض أيّام...

قبل أن يُصارع أسئلة لامارتين، سمع لامير من جديد، مُلْهِمه يجهشُ من أعماق نفسه ببُكاء الوِحدة، وكأنّه مأسورٌ حقاً. مُمْسكاً بحُجيرةٍ اعتصرها قطر عيونه، حتى باحت بقولها المدفون:

ما عـادت الأصـفاد تؤلمُ قبْضتي ... ما عـادتِ الأحـزانُ تُـؤْرقُ مُقْلـتي
سجني فسـيح، لا يجـول بعرْضِـه ... إلاّ أســـير المحبســـين ودمعـــتي
... إلاّ رثـــاءً قـــد تـــأوّه شـــعره ... بيتـــاً وبيـــتينِ، فلُفّـــا بـــزفْرتي

•••

طاف الإبهامُ حول لامير، عن بُكاء الصّخر، وسيل أساه، كسيل أسى شاعره... وإذ به يروح ويجيء، باحثا عن الأمير عبد القادر، علّه يُصغي إلى لامارتين، سائلاً ذاته:

- ما عساهُ سيقول للأمير، رُبّما؟ وأعباءُ الحياة أدمت عُضده وقلبه. غير أنّ الأمير الوديع واسع الصبر، كلقبه تماماً، والمُرادف لباديته.. ما عساهُ سيسْمَعُ ويُسْمِعُ؟

إنْ كانت ريفيلا، مُلِهمة الشّاعر، وقُود أساه.. إن كانت بوْتقة الأحزان، التي تجمّعتْ سيلا بقلْبه، فوطن الأمير في قلبه أوسعْ، وسناءُ فراقه فيه ألمعْ.

سكن لامير فجأةً دون حراك، لتفيضَ من مقلتيه زفْرة الأزمنة، أخرجتْ سؤالاً من قلبه:

- آه... ما الفرق؟ 2007 و.. 1848 إلاّ أسى القرون. قرنٌ ونصف، والأحزان ذاتها. فها هي الدّيار التي سكن الشّعراءُ فيها، بقيت أثرا بعد عين. ها هو الأمير... وها هو الشّاعر، وطنٌ من سيول وقممْ... وآخر من لحمٍ ودمْ.

تـوارت عيـون لامارتين عـن عيـون لامير، وغـاب في زحـام يـومٍ ازداد طـولاً، كطـول المسافة الـتي تنتظر الفـارس العـربي، الـذي يحمـلُ في أعماقـه إليـه ليـالٍ أبْعَدَ طـولاً من فروسيته وبيدائه:

لـو كنـت في الصـحراء مُرتقبـاً   بسـاط رمـلٍ لـه الحصـاة كالـدّرر

بحيرة الملائكة

3

ما هي إلاّ أيّامٌ قليلة، حتى لحِق الأمير - وهو مُحاطٌ بالفرنسيين أُناساً وجُنداً - إلى المأوى الجديد. ومع كلّ ميلٍ يعبره، تعبر به الذّاكرة إلى كلّ شِبْرٍ من وطنٍ حبيب، وطنٌ نسائمه كأنّها مودعة من السّماء، يستنشقها كالهواء ملء رئتيه، تُحيِ الوشائج، تُحيِ دماءً في القلب يقظةً وفي الرّوحِ حياةً.

وها هي الأماني تعاوده، وها هو ضوء الصبح ينسلّ كهمسٍ دافئ في فضاءٍ غزاهُ القر، بريحٍ باردة، شقّت طريقها إلى عربة الأمير، بعدما تجوّلت في شوارع مدينة "تور". في هذا الصبح الذي دبّت في أفنيتها وباحاتها حركةٌ غير معهودة، أو هكذا استشعر الأمير الذي شُدّ لصوت أجراس كنائسها. كأنّها ذكّرته أصداؤها اليومية بخطوات أهل ' قيطنة' - حيث وُلد - وهم يسيرون زُرافات ووحدانا إلى صلاتهم، في يوم الجمعة وغير الجمعة، ما زال صوت المُؤذن الرّخيم ينقل صوت الحق إلى الأفئدة، التي أثقلتها أعباءُ الحياة، لِيُهَدّئ من روعها ويُسكن فيها الدّعة والهدوء.. لتسكن الدّعة والهدوء رحاب المساجد والقلوب.

وقد ربتْ في ذاكرته بذرة ذلك اليوم من الجُمَعِ، حين صادف - وهو الإمام - فتى، قبيل الصلاة، وقد ألقى التّحية على سيده:

- السّلام عليكم سيدِي.

- وعليك السّلام يا بُني.. ما لي أرى المُدية في يدك؟

يُجيب الفتى، كأنّه يسارع الهواء جواباً:

- إنّها للوالدة، وقد أوصتني بنحر خروف لنذر نذرته.

ليجدّد الفتى وهو مُنكسر أمام نظرات الأمير الرقيقة المزوجة بالحدّة:

- وها أنا سيدِي، للأمّ وللنّذر مُطيع.

حزّ في نفس الأمير، رؤية المِدية في يوم السّكينة هذا، ليردف بالقول:

- الجمعة، يا ولدي، صلاةٌ وسكينة.

ليشير بعدها إلى حانوتي بالجانب، قائلاً:

- دعْ مُديتك عند هذا الحانوتي.. ودعِ السّكينة مودعة في قلبك..

عاد بال الأمير إلى تور، وعادت معه ذكراه وتنهّد مُطْلِقاً العنان للسانه:

يروعـــني الصـــبحُ إن لاحـــت   يا ليته لم يكن ضوءٌ وإصباح

ليـلي بـدا مُشـرقاً مـن حُسـن   وكـلّ ذا الـدّهر أنـوارٌ وأفـراح

•••

انقضى صُبْحُ الأمير، وانقضت معه أيّامه في "تور" ليُرحّل إلى "أمبواز"، لتصل عربته مُجدّداً، ومن خلفها حُرّاسه الإفرنج. وعلى بابها يجدُ مُستقبليه:سيدٌ أنيق، وخادمٌ تُغلّفُ وجهه مسْحةُ تواضعٍ وطيبة. ومع الجميع فتاةٌ أنيقة جميلة، وعلى غير ما شاهده في أرجاء فرنسا، فبشرة الفتاة سمراءِ كسرّ حجارة الوادي، كوردة مسائية في روض البياض، تتدفّق إغواءً، كتدفّق سُمرة النّيل.

فتح الأمير باب عربته لينزل مُلقياً التّحية:

- السّلام على من اتّبع الهدى.

ليسمع صوتا، كأنّه الصّدى... يُردّده الجميع:- بونجور Bonjour.

ويتوجّه صوت منهم، مُرحّباً بالأمير:

- وعليك السّلام سيدِي الأمير عبد القادر. أصالةً عني ونيابةً عن الجميع.

جوابٌ كمّل صورة المترجم وصوته أمام الأمير. اقترب الرّجل ذو الصّوت الممزوج بالبحّة، والرّقة والهدوء المنطلق من ملامح عربية، أوت فيها عينان واسعتان، وكأن في عُمقهما أسرار لُغات الدّنيا. وفي جبهته الواسعة صفاءٌ يشوبه سطرٌ من الشّك.

إنّه يكادُ يُشبه وجهاً عربياً جميلاً، وجهٌ أنيق، يخال من ينظرُ إليه في هذه اللحظة أنّ الملامح الإنسانية ثابتةُ الدّلالة، لا تتبدّل.. تلك ملامح هي لـ (إنيليت فارس)، المزيج الباقي بين العابث والرّاقي، خليطٌ مُبْهم بين الجهل والعلم.

اقترب إنيليت من ضيفه الأمير، الأسير:

- سيدي، بلغتنا أصداءٌ عن بحر علمك وبسالة مُقاومتك.. وها أنا من كثيرين - وأراني أحسنهم حظاً - رُشِحْتُ لأُترجم أحاسيس قلبٍ مُتدفقٍ بلُغةٍ أعرفُ أهلها، وماضيها، وأعرِفُ كُنْهها. ليقترب كأنّه استشعر القُرب مضيفاً:

- ذلك أنني درست في كتاتيبها العربية، ولَكمْ وُبّختُ على كتابتي بالشّمال من مُعلّمي، والذي ذكّرتني عمامتك البيضاء به.. ولست الوحيد هنا سيدي من يعرفُ العربية..

وبإشارة من عيون الأمير السّاحرة اقتنى إنيليت منهما السّؤال، ليجيب مسترسلا:

.. فهناك شيءٌ منها عند السّمراء(وهو يشير إلى روان).

سكت إنيليت بعد الحديث المُشبع بالتّودّد. وكأنّه استحى لاستمرار جهره بإطراء الأمير.

التفت الأمير إلى مُحدّثه، بعد الإصغاء إلى حديثه المُنبعِث من أناقةٍ أوربية، وعيونه مشدودةٌ إلى ما في القصر وخارجه، وكأنّه يستطلِع المكان، تماماً كما كانت عيونه حينما كان خصما لقادة هؤلاء. ليُفاجِئَ إنيليت بالسّؤال، بصوتٍ تشوبه رقّة:

- أين درست؟

أجاب إنيليت كأنّه سُرّ لسماع صاحب السّؤال:

- بـ "وهران" سيدي، حيث وُلدّت.

أعادت وهران للأمير ما حدث له مع والده، أثناء ذهابه معه إلى حاكمها، لترْتسمَ على مُحيّاه ملامِحُ التسليم للقُدرة الإلهية. فقد استفاد حينها رفقة والده -وهو في سنٍّ مُبكّرة - من هذه العُزلة المَفْروضة عليهما لسنتين، حين خصّصا وقتهما لدراستهما المُفضّلة. استوّعب الأمير حينها أنّ شوكة الحُكّام قد ضعفت، وعلى رأسهم حاكمُ "وهران"، الذي سجن والده، لوشاية كانت مكانة الوالد العلمية والاجتماعية، شرارتها.

يُجدّد الأمير السّؤال التّقليدي المعْهود لـ- إنيليت، عسى يطرُدُ عنه ذكرى وهران:

- كم حفِظتَ من كتاب الله؟

سكت إنيليت لبُرْهةٍ، وسار قليلاً في قاعةِ الاستقبال. استشفّ الأمير من صمْتِ مترجمه شيئاً من رفوف سريرته، استوضحه حين قال:

- ألم تحفظ القُرآن؟

أجاب إنيليت بهُدوءٍ:

- بلى. وأحفظ جُلّ الكتب السّماوية. ولي درايةٌ خاصّة، ازدادت - بين أهلي - عن التوراة، حين كُنّا بوهران. فأهلي في الأصل من أحفاد الوافدين، هربا، من الأندلس، حينما لاقينا ما لاقاه جيراننا ومن نعرف من إخواننا..

ازداد حرص الأمير على التّجوال في خاطر مُحدّثه. ودون إلحاح في السّؤال، تدفّق جواب إنيليت، المـُغري لفضول الأمير المبثوث في الصّمت، كعادة أهل العلم دوماً:

- سيدي أنا كتابيّ.. (وأضاف وهو مُستأنس بالأمير):

... ولا أُنْكِرُ فضلَ من علّمني حرفاً واحداً، و...

وقبل الخوض في حديثه، أسكته القائم على الإقامةِ الجبرية، ذلك الكهل الأنيق، بابتسامةٍ مُفْتعلةٍ، قائلاً:

- عُذرا يا إنيليت!

طالبا بُعَيدها من الأمير وأهله الدّخول إلى مأواهم الجديد.. سائلاً إيّاه إنْ كانت له حاجة.

دخل المرافقون للأمير، ومع النسوة روان، المـُكلّفة بهن. وبقي الأمير رفقة مترجمه، الذي عرف أنّ اسمه إنيليت، يسيران خُطوةً خطوة، وهما محاطان بنصف دائرة من أهل القصر الدّافنشي، والذي جدّد الأمير إليه النّظر وكأنّه يستطْلِعُ سجناً واسعاً، مرّةً بعد مرة.

عاد لمترجمه، ليعرف منه كلّ من وما في القصر من مُستقْبليه إلى ذكريات أمبواز ولم يُخْفِ عنه استفهامه، بإشارة العالم، عن روان ومن أيّ موطنٍ هي... بقيَ الاستفهام، والاستغراب، مُحلّقاً بذهن الأمير، في ثوب الحيطة الرّاسخة في سريرته النّقية.

حلّت الظلماءُ، وحلّ معها الإرهاقُ السّاري في كلّ أغوار جسم الأمير، الذي امتلأ طُهراً، حين آوى إلى محرابٍ لم يُنشئه من قبله أحد، مُستقْبِلاً قِبْلَةً هي التّرجمة لابتهالات تسري في كلّ قطرة من شريانه وأنفاسه.

صلّى صلاته، واختار بُعيدها قِبْلَةَ ابتهالاته، وقد أسماها في أعماق نفسه:"خُلوة العُبّاد". يتضرّع لربّه، شاكراً نعماءه في سرّائه وضرّائه، ليستسلم بعدها لمضجع السّكينة، ومن حوله الأهل والأحبّة.

وها هي خواطر الصّالحين تُحيطُ به، وها قد تجسّد - الآن - أمامه طيفُ الشاعر لامارتين. دنت هذه الخواطر لتُرافقه آناء ليله، بل لتَضع نُصب عينيه الشّاعر ذاته.

باح الأمير بخاطره لشاعره:

- رغم أنّي لا أعرف لُغتك، لكنّك شاعر، وهذا يُلْهِمُك معرفة كُلّ لغات الأرض.. أجبني من الذي جاء بك إلى عالمي؟

أجاب الطّيف خاطر الأمير:

قد أجهلُ كلّ شيءٍ عنك إلاّ روح ما كتبت، فالشّعر لا لغة له، مثله مثل الحُب. صحيحٌ أنّنا يا صاحب الجلالة، نجهل تفاصيل تاريخنا الغابر، إلاّ الأب الأوّل، إلاّ النّبي الأول، منبعُ الحياة فينا.. آدم، آدمُ هو أنا وأنت.

أَلِفَ الأمير مُحدّثه، كأنّه أمام عينيه. ليقول:

- بلى، آدمُ صوتُ الإنسان فينا، هذا الإنسان الذي لم يخجل أن يدَعَ ضِلْعه ينأى بعيداً عن ذاته، ليدنو منه بروحه. آدمُ - يا صوت الإنسان فينا - مبْعثُ الحُب، مَبْعثُ الجمال... مبعثُ كلّ شيء.

أخرج الجواب من وُجدان لامارتين استفهامه الأزلي:

- لِمَ إذاً خانت آدم دماء ذريته، فسالت أعقابهُ أنهاراً كبُحيرتي التي أفِلَ طيفك منها سريعاً؟

دُفِع الأمير بصوت الحنق من حديث لامارتين ليُسايره:

- بل بأرض مُرّغتْ بدماء من هذا وذاك، من هُنا وهُناك... أجبني تُراك تفْلَح، ما حيلةُ صوتي وصوتك.

سكت صوت الهاتِف، واختفى التّآلف. غادر الأثير الأمير. وبقي مُستطْلعاً الفجر الذي دنا منه، بدُنو صاحِبَةِ عُمْرِه ليلى بخُطى الصلاة، إنّه الصُبح.

مرّت ليلة الأمير الأولى، وقد طاب له في هُنيهاتها المقام، وما ذاك إلاّ لمرارة ما كابد من سَفَرٍ شاق، كانت وسيلته فيه عربة. عربةٌ أُجبر على قُبولها - ومن معه - مطيّةً، لِيُسر كُلفتها.

فالذي يأخُذُ بلجامها دليلٌ من الجندية الفرنسية، وبجانبه رفيقُ من عشيرة الأمير، والمرافقون جنود مثل عشيرته، مأمورون بالطّاعة، أو مدفوعون بالحاجة..

الحاجة! هذه التي تدفع المرء أحياناً إلى غير ما يرضى، مثلما الأيام التي قادت شاعر الوجدان - في آتِ الدّهر - إلى ديون الحياة، التي أثقلت كاهله، وما أسكتها إلاّ ذكرى وزير مأسور بالأسى.

حمل الوزير الشّاعر، تحت إبطه كُتيّبه الأحمر التجليد، المُتدفّق شعراً. وما زال سائق العربة (الكاروس) ينتظر سيده لينقله إلى بيته الرّيفي، الذي فتن والدته من قبل، حينما كان مُلكاً للعائلة في "ميلي".

تهادت حوافر (ميراج) فرسُ الشّاعر، وكأنّها تُهدْهدُ على كفّ الطّريق، الذي سار فيه الأمير رضا قبل أن يتوارى عن مُضيفةِ أُسرته الأخت فارتي، التي ما زالت خارج الكاتدرائية.

أمّا لامارتين، الذي سبق عِطرُ غُرْفته المُنْبعث أريجاً من العربة أنفاس الهواء. ها هو يَلِجُ مملكته المُتنقّلة، وينطلقُ تاركا لـ لامير كرسياً بجانبه، علّهُ يراقبُ الزّمن..

تسير العربة بالغنج رويداً رويداً، قاصدةً بيت الشّاعر. ومعها بدأت زخّاتُ المطر تهوي من جديد، لتستسلم طُرُقاتُ "بورجي" لأمطار تبعثُ قطراتها الصّدى في الطّريق الحجريّ، الممزوج ببريق الرّخام المُبلّل، مُعطياً للأرضية لمعاناً يُغري الأرجل بالطّيران، وليس السير فحسب. أرجُلٌ تحمِلُ أجساد السكان المُبلّلة، والتي تسارعُ بالفرار نحو البيوت القليلة لتُؤيها..

انطلق ناس المدينة، وقد غادرت خُطاهم الطّريقَ كُلٌّ إلى مأواه، إلاّ فارتي، التي لم تعُد - ربما - تشعُر بقطر المُزْن وهو يغزو ما ترتدي من جِنان ملفوفٍ بالحنان.

أوقفت الرّاهبة السّائق المُسن، جاهلةً من في الـ(الكاروس):

- تحية طيّبة سيدي، هل لك أن توصلني؟.. إنْ كانت وجهتك قريبة؟

قبل أن يبوح (نيستاد) بأيّ جواب، نظر إلى سيده وقد هدأ المطر شيئاً ما، كأنّه يستشيره. وبطرف العين، ترجم إنيترمال جُملةً رقيقة أوحت للسائق بـ:أنت صاحب العربة، افعل ما شئت.

فأجابها المُسن مُباشرةً:

- أُعذريني أُختاه! فنحن في طريقنا إلى ميلي وسنُغير اتّجاهنا بعد أقل من كيلومتر..

ليُضيف، بعد أن استلم القيادة:

- وأظنها ليست وجهتك؟!

غير أن الأخت أصرّت على وقعِ الزخّات التي ازدادت هطولاً:

- أرجوك سيدي، تكاد مياه المطر تغزو جسدي و...

التفت إنيترمال فاتحاً الباب الخلفي، ليميل برأسه كتحيّةِ تبجيلٍ لقدّيسة شومبيري، بعد رحلتها إلى أرض العرب، وهي مليئةٌ بالصفاء والنّور:

- أختي الفاضلة، أرجوك (وهو يُشير لها بالدّخول إلى (الكاروس).

ليُضيف:

.. فأنا ورفيقي - وهذه المطيّة - طوع أمرك...

شكرت الرّاهبةُ مُضيفها، بعدما أرسلت يشقّ العين لوماً للسّائق أمضته خيبته، واستلطفت حديثه وأدبه، ليُتاح لها مُقابلته في الجلوس، وهي تُبصرُ إلى ضوءٍ خافتٍ مُنْبعِثٍ من سطح(الكاروس) الدّاخلي، لتبدأ، بعد هنيهة من أخذ مكانها، بالسّؤال:

- تبدو عليك آثار التّعب، أيّها السيد الكريم، فوجهك شاحب..

اختزل لامارتين في داخله مشقّة ما خاض من انتخابات، وأجابها:

- مُجرد إرهاق أُختاه، فلم أنم جيّداً ليلة أمس..

أوقفت الأخت مبرر الشّاعر وصوغه قائلةً:

- كلّ النّاس، هذه الأيام، غادر النّوم أجفانها.

حدّق فيها مليّاً، وألقى إليها بشيء ممّا يتعبه:

- أختاه، إنّ أعباء الحياة ووخزُ الذّكريات يُشعلان في النّفس الأرق والسّهاد.

أبصرت فارتي إلى الزّمن عبر لامير، وإلى الدّنيا عبر نافذة (الكاروس) وتنهّدت:

- الذّكريات، هذه الشماعة التي أفقدت النّاس صوابهم وحياتهم.

استسلم لامارتين لحديث الرّاهبة قائلاً:

- صدقتِ.. ما هي إلاّ شمّاعة، ولكن... ما باليد حيلة، الذكرى تعبر أفق الخيال الآدميّ رغماً عنه...

نظر لامارتين مُجدّداً إلى الأخت الرّاهبة، وما نطقت بكلمة، إلاّ وأيقظت في تذكاره جروحاً وقروحاً.

تواصل(الكاروس) طريقها، كأنّها أنامل عذراء تحيكُ خُطوط الوجد في فؤاد الكلف العاشق، بحديثٍ عذبٍ وألحانٍ شجيّة. وما زالت الزّخات تهوي على جانبي الطّريق، تُعانق وهي تهوي الزّجاج النّائم على سطح أبوابها الصغيرة البُنّية.

سكتَ من في(الكاروس)، وما استيقظت إلاّ جُمَلُ لامير الحيارى، بعدما سمعت أُذناه سلسبيل النّقاء، الذي تدفّق من ثغر الرّاهبة، التي بادرت الشاعر - مُجدّداً - بالحديث، راويةً قصّتها:

- لقد عشت في ديارٍ، منذ مدّة، استراحَتْ السّكينةُ فيها، وأُلْهِمت الدّعةَ نُبُوّةً، فاستقرّيتُ بها. ديارٌ افتخرت بمثالب رجل من مشكاة المسيح، وُلد في جزيرة العرب، في منتصف القرن السادس... رجُلٌ برسالة ربّانية في يده..

شغلت هذه الجملة من ثغر راهبة المسيح - لبُرهةٍ من الزّمن - قلب لامارتين وعقله، ليستفهم قائلاً:

- من هذا الرّجل؟ وما رسالته؟

ليستفهم من جديد، كأنّه يُحدّثُ نفسه:

- وهل هناك غير ما جاء به المسيحُ من رسائل؟

- هي ذاتها رسائل المسيح، مُحيياً الهدى في الذّاكرة التي كبّلها السُّهاد والنسيان.

استغرب الشّاعر جهلهُ بما تقول الرّاهبة، التي جدّدت الحديث:

- ففي رُفوف ما اقتنيتُ من كُتُبٍ ومُجلّدات، وجدتُ أحاديث الشّعراء الأوربيين عن النّبي العربي.. محمّد.

حلّقت هذه الأفكار، المـُدوّنة في أحشاء الكُتُب عبر التّاريخ، روح الشّاعر وصَحِبَتْهُ لتوحي له بنبش التّاريخ مرّةً أُخرى. وتاريخ العرب الذي زارتهم أقدامه منذ سنين، دون أن يعي ما يسمعه عنهم من الرّاهبة الآن.

وبدأها بالسّؤال مُجدّدا، كأنّ ذاكرته استعادت شيئاً ممّا تصفّحتْهُ من قراءات شبابه الحافل بالتّديُّن:

- أعرفُهُمْ... أهل البادية؟!

سبق الاستغرابُ جوابها:

- عن أيّ باديةٍ تتحدّث؟ عن تلك التي غادرت جحافلُنا إليها، ولم ندْرِ أنّ بها مهد ما نعرف من تاريخٍ وفلسفة؟ أليست الفلسفة اللاّتينية رُشديّة أندلُسية؟

ما كان جواب الرّاهبة إلاّ شرارة علتْ واستعرت، فاتسعَ للهيبها الحديث بين الرّوحين، وهدأتْ بين العقلين، وهُما يزدادان انفتاحاً وغوصاً لمعرفة المزيد والجديد.

لم يستفِقْ لامير - وهو يُصغي إليهما - بعْدُ، من أحاديث تدور في مكتبة عقله، ولا تعرف سبيلاً إلى لسانه، فهو لا يقوى على تدوين ما يعرف، بل هو لم يُحاول مُطلقا..

سكت لامارتين حيناً من الزّمن وكأنّه يتعلّم من راهبته من جديد. لقد علّمته فارتي أنّ ما في القلوب من رحمة مغلّفٌ بالإباء، هو ما يتحلّى به هؤلاء الذين عرفتهم وتعلّمتُ منهم. وما عقابُ حُكّام الإفرنج لهم إلاّ عقابٌ للحق.. عقابٌ للمجهول. أو هو - رُبّما - عقاب السّلطان، الذي حُدّثنا عنه منذ الأزل. فالحاكم مولعٌ بعقاب الرّعية، وإن كانت من قرباه. لم تُخْفِ فارتي سرّاً حين قالت:

- إن كان للرّب عقابٌ، فهو لمن قاد صفوة شبابنا لعقاب صفوة ما أنجبت الأرض من عُلماء ورجال فكر... ولكن أرحم من سطوة مخلوقاته... أرحمَ بهم من أنْفُسهم.

استنهضت أحاديث فارتي أحاسيس لامارتين وهواتفه. وانطبعت في ذهنه صورة الأمير العربي وقدوته، وإذ به يَنْذِرُ نذراً:

- سأترك العنان باحثاً لقلمي هذا، الذي ينزفُ مثلي، لأردّ جميل هذا الإلهام، لصاحبه محمّد، لتكون حياته لقلمي مداداً وإلهاماً...

عاد لامارتين بحديثه للرّاهبة فارتي، وكأنّه مزيجٌ من الاستجداء والعرفان، والشوق لمعرفة القُرب الإلهي، وهو يُطلّ من نافذة الكاروس:

- أُختاه، ها نحن اقتربنا.

ليواصل الحديث، وكأنّ نيستاد نسي الطّريق، فقد ترك العنان لفرسه (ميراج) بالسير، وما عاد سيده يُذكِّره بالوقوف - مثلما كان يفعل - عبر النّقر على الجدار الزّجاجي الذي يفصلهما..

- .... ولكمْ أطمعُ أنْ أعرف منك ما يزيدُ المرء استيضاحاً لصورة التّاريخ بجلاءٍ أكبر، عبر تلك الدّيار، التي شاهدت شيئاً منها من قبل، والتي عرِفْتِها، وعرّفتْكِ أكثر بهذه القيم، التي أظنّني - وغيري - جاهلاً بأصحابها.

أجابته كأنّها تُودّعه:

- لن أبخل عليك سيدي الكريم.

نزلت الرّاهبة نحو وجهتها، ولم تألُ جهداً في استيضاح كُنه هذا السيد الكريم، الذي يُرسلُ بالحديث وكأنّه الشّعر رقّةً وعُذوبَةً... رُبّما ستعرفُ عنه شيئاً غداة لقاء العمّة...

بحيرة الملائكة

4

وصل الشّاعر إلى بيته في ميلي، ووصلت إلى قلبه وروحه راحةٌ، كان ينشدُها دوماً، ترافقه بُعَيد زيارته لنُصب ريفيلا المحفوظ في قلبه. راحةٌ من النّادر أنْ تُصاحِبه.

وذهب كعادته إلى مكتبته التي يعشقها، وكأنّ حديث الرّاهبة صحّحَ ما يدّخرُه ذهنه من تاريخِ وفلْسفةِ هؤلاء، وما ذاك إلاّ صفحاتٌ غادرتْ ذاكرته في فترة مُرافقة الرّاهبة التي لم يُبصرها من قبْلُ، وما النسيان إلاّ لفرْط ما عبثت به الدّنيا.

وقبل أنْ يتّكئ، آثر لامارتين - على غير عادته - قراءة الشّعر عِوَضَ كتابتِه، بعدما كانت غُرفة نومه متحف الشّعراء، لكثرة ما بين جانبيها من دواوينَ يُغلّفُ صفحاتها الجلد القرمزي، الذي تُقدّسه دور النشر الفلورنسية الفاخرة... لتنتقل أنامله بين رُفوف مكتبته المتلِئة نثراً وشِعراً.. ليلوح في وسطها عنوان:"أشعارٌ عربية Poèmes Arabes"، وكأنّ الشّاعر - فيما سبق - كان يقرأ بغير العين والقلب اللّذين يقرأُ بهما الآن. واستشعر الوصل الجلي والأُلفة البيّنة بين آخر مخطوطاته، وأوائل ما يتصفّحُ من صفحات..

تنهّد الشّاعر مُنادياً ذاته:

- ليتك أيّها العربيّ، الآن، تُطْرِبُني؟

يستدعي لامارتين أميرهُ عبد القادر، الذي تُكبّله حبال الإغراء المـُمسكة بخادمته كلّ مساء، وما يطرُدُ إغواءها إلاّ تشبّثه بعقّار النّقاء الموروث من بذرة النّبوة الشريفة.

... وها هي ليلةٌ أُخرى من عذابات الأمير، التي بدأ يدفن صداها منذ أوّل ما وطأت قدماه سجنه الواسع هذا، وكعادته لم يُرهق غيره بما يُرْهِقُه. لم يُرهق الأم التي تُرافقه - كلّ صبيحة - بالحديث الذي ألفاه في قيطنة عن بر الجزائر. لم يُرهِق

الزّوجة الرّقيقة التي تصاحبه في سويعات المساء بأنّاتٍ مُتْعِبة. عزاؤه سلسبيل النّقاء المُنبعث من أعماقه:

زفراتُ قلبي جمْرُ نارٍ أججت	منه دُموعُ العيْن فاضَتْ ذَرَفا
بمَحَاجِرٍ من حاجِرٍ أقْذاءُ قدْ	طردتْ ضيوف الطّيفِ جاءتْ طُوُفا
هلْ منْ منامٍ للّديغ، بمرّةٍ	فضلا عن المرّات أو هل من غفا
ما أنْ تألّق برْقُ سَلْعِ والحمى	حتى تفيضُ النّفسُ منه تألفا
وأراهُ سيفاً صارِماً وسط الحشا	فِعْلَ الأفاعي أو شِهاباً ما انطفا

ربت أسئلة الأمير وازدادت وخزا لوجدانه، أكثر من الغواية ذاتها. وعاد مُسائلاً ذاته على غير ما اعتاد:

- أهذا هو الأمير، الذي اندفع - إبّان مقاومته - إلى قائد الجُند، ليُجرّده، في لمح البصر، من سلاحه، ليُفاجأَ القائد الفرنسي حينها، ويُسائل نفسه: أإنسيٌّ هذا الذي أمامي أم جِنّي؟... أهذا ذاته من يتضرّع - تَعِبا - لله، لمولاه، أنْ يُبعِد عنه تمايل من تخدمه، وينأى به عن مُقْلتيها، ويُلْهِمَه الصّبر الذي كادت تخبو جذوته؟؟

ولكن الأمير ما يلبث أن يعود إلى نفسه، ليوقظ همّتها:

"- لا، سوف أتحمّل سجن وحدتي، وسجن حرّيتي. ألست من اختار؟... سأتضرع للمولى، صوماً ودُعاءً وابتهالاً ورجاء، أنْ يرْضى بالقبول. وسيجِدُني، بإذنه، لفتنة مغريات الأجساد من الصّابرين. أليست هذه دعواتُ شيخي، منذ أن وعيت بين أركان زاويتي.. 'ربّ احشرني مع الشّهداء والصّالحين'، ولا شهادة دون جهاد، وإنْ كان أصغر، ولا صلاح بدون جهادٍ أكبر.. صُوّر بين يدي في روان".

هذه أحاديث الضّمير الحيّ، الذي يستيقظُ كلّ حين من الأمير، ليطغى على قلبه ولسانه.

ليلةٌ كمثيلاتها، بدأت بخادمة الأمير، الذي ينتفضُ عشقاً، غير العشق الذي تهواه روان وترغبه. حرّكت برغبة الجسد شيئاً من دفائن النّفس التّواقة للغبار الآدمي. ولكنّ ما أسكت حِراك ذلك الجسد هو حِراك الحياة العُلْوية لدى الأمير، حراكٌ تُغذّيه "خلوة العُبّاد". هذا المأوى الصغير والمُتسع راحةً ودفئاً. ملْجأٌ هو ليستريح فيه جسمٌ كابد الويلات إغواءً وإغراء.

استلذّت عيون الأمير عبد القادر النّوم، فانسدلت أجفانه على بساطِ رؤاهُ الدّافئة، المُحلّقة به إلى عالم السّكينة، تشبه تلك التي ورثتها روح لامير منذ الصبا.

لامير، هذا المنسي، الذي رحل كالأمير - من قبله - طالباً للعلم، فارّاً من جدب الحياة، من هول دماء بلاده. بلاده التي بكت ولم تع غير الدّماء بُكاءً..

افتقد قطعته الفضيّة، ويحِنُّ للمسها كما فعل أوّل مرّة عند السيد عزيز. يحِنّ لاستشعار ثقلها ووجهها.. فوجهها الغربي الشّاعري، المُطلّ بنظرة لامارتين ها هو يظهر أمام عينيه رأي العين. وإنْ أدرك أنّ الشاعر ما هو الآن إلاّ طيفاً، لا يُبصر إلى لامير إلاّ كما يُبصر الزّمن للفناء..

كأنّ الشّاعر الوديعُ ينفطر انتظاراً لمواعيد، خطّها الأمير في إنجيله بعد كلّ صلاة وابتهال.. عسى أنْ يُسكِن من أوجاعه التي تئنّ في قلبه، قلبٌ استعار من الشّاعر ترانيم النّفس المُغرّدة على لسانه حين قال مُستبشِراً:

- صاحب الجلالة (وهو يهفو للعناق من فرط الشّوق).

ليُعاتبه الأمير بلسانٍ ليّنٍ:

- ما هذا اللّقب، الذي لقبّتني به أيّها الشّاعر؟ أيّ ملِكٍ يتراءى لك؟

ليُجيبه لامارتين بعفوِيّته:

- أوَلَست من مشكاةِ النّبوّة؟ أَوَليس الجلال سُمُوّاً ورُقيّاً..؟ عَالمُ النّاموس عندي أجلُّ من الألقاب وأوسِمة الإقدام.

بجواب الرّضا أهدى الأمير عبير حديثه، بلسانٍ دائمُ اللّين:

- إنْ كان كذلك، فلْتسمح لي أن نتقاسم اللّقب سويّاً، لأنّي أرى بُرْدَ النّبُوة يكسوك. أولست آخر القدّيسين - وإنْ دون بعْث - بإحساسك بالوجود وخالقه، ونُبْلك كأمثال سُقراط، وإنصافك للنّاس في حُكْمِهم وحكمتهم؟ أولست آخر الأنبياء - وإنْ دون وحي - في طلبِك الحقيقة التي كنت - كالعارفين - تصبو إليها؟ ألَمْ تُذكّر الرّاهب في صومعته - ناصِحاً - وهو الذي علّمك العبادة وترانيمها، بأنْ يغفو ويصْفح عن الفقير والغني على السّواء، حين يمسَح عن الفقير حُمْرةَ الخَجل وعن الغنيّ سواد الذنب، إن طرقاً بابه؟..

... صمتتِ الدّنيا، إلاّ أصوات هؤلاء.

بحيرة الملائكة

5

في صباح الأحد، رافق لامارتين، الرّاهبة فارتي مدّة من الزّمن، ولم يدع الفرصة تمضي دون التّعقيب على ما يدّخره:

- أعدت قراءة صفحاتٍ عديدة من كُتُبِك، ومن خلالها ازددت، أُختاه، يقينا أنْ الجُرْمَ لا يزال يُرْتَكَبُ في حق هؤلاء...

نظرتِ الرّاهبة إلى الشّاعر الرّقيق، وقد عرفت بحق من هو لامارتين؛ لتُجيبه بعد الإصغاء لحديثه:

- أرأيتْ؟ ألمْ أقُلْ لك إنّ عقاب قادتنا لهم، كعقاب الملوك لهذه الرّعية، بعُذر الكاثوليك والبروتستانت..

لتُعقّب كأنّها تُوضّح:

- سواءً هنا في فرنسا أو انكلترا أو سواهما.

استفاق لامارتين وخفق قلْبُه لذكر إنكلترا، فبِذِكْرها عاودَ الحنينُ مساره. فقد تذكّر زوجته الإنكليزية والتي تُعاني - رُفقته الآن - ما تُعاني... وتنهّد، قائلاً:

- إنّهُ قرْنٌ موحش، هذا الذي طغت فيه أُوروبا على من جاورها في جنوبها، بعدما يئست من امتصاص أراضيها التي ضلّت لقُرونٍ دماءً لم تنضب بعد..

- بل هي كذلك! أَلَمْ تكُنْ أوروبا هذه، ونحن الفرنسيين بالأخص، وقود حروب استعرت لقرون، وما هدَفُ قادتنا - أيّها الحاكم المقْهور - إلاّ مالٌ، جاهٌ وصولجان في أكُفّ الشرق السّاحر. فاعتقدنا من غِوايتهم أنّ الغاية أسمى وأجَلّ... لنُصرة الدّين والعقيدة... لِنُصرة بيت لحم بيت المسيح، الذي زرته، ومهده.

أعاد الشّاعر النّظر إلى قدّيسته، ليسألها، كأنّه بذلك يسأل نفسه:

- أُختاه؟ هذي الشّعوب المُطْمئِنّة والهادئة الوادعة بديار المسيح، تُراها ستغْفِرُ لهذي الجيوش الحاملة لذات اللِّواء، والتي مدّت بأنصال الحرب نحو صدورها، برمحي الإيمان والرغبة الزائفين، واللّذين انتفضنا لقهرهما في أوروبا، فوُلِدت في أعقابها أوروبا المستنيرة! برمح البيع والشّراء، الذي دعا تُجّارنا لأن يتنكّروا لخير تلك الدّيار ويبيعوها لجندنا بثمنٍ بخس؟!

رنت الأخت، كأنّها تُذكّر الشّاعر بفراستها:

- ما أومن به بحق أنّ الآتي أصعب. وسيأتي اليوم الذي سيلحق فيه أحفاد هؤلاء بميراثهم المسلوب في دورنا وديارنا... ويجنوا حقّهم الذي سيمْسي صنيعتنا... الحق في استرجاع المسلوب. هذا ما أراه، صدّقني. رُبّما هي نُبوّةُ، ستدوّنها شِعراً دون أنْ تدري..

كلّ هذه الحُروف المُنْبَعِثة من شِفاه الرّاهبة والشّاعر، لَكأنّها ذخيرةٌ تنتظر الانطلاق من فيه لامير الشّاهد على حديثهما، بل لَكأنّه يودّ البوح بحديث الصّفاء وترانيمه. هاهي من جديد، تنطلقُ من ذاته التساؤلات:

- لا زلت - أنا الطّالب - أبحث في رفوف مكتباتكم المليئة بالجديد دوماً، وفي مُدرّجات جامعاتكم المليئة بصفوة العقول، وبين صالونات متاحفكم التي تُغري العيون.. وفي دور موسيقاكم عن ذاتي، عن نفسي التي تتشتت لتتجمع من نفوس الأوائل. غير أنّي – مُجْبرٌ ككثيرين غيري - بقيتُ صريعا لجهل أوروبا التي تتحدّثون عنها وعن قادتها. ليت أوروبا أصغت لكُما، مثلي... يا ليتها للشّعر واعية وللابتهال مُصغية... ليتها صَدَقَتِ النّبُوّة مثلكما، لِما في دفاتر الأيّام المُظْلِمة (التي جِئتُ منها مُرْغما)...

أفِلت أسئلة لامير مع أقْباس الشّاعر لامارتين، الذي رَكَنَ لأشعاره وأسفاره وبينهما شوقه، ليستشفّ الجديد من ثغر الرّاهبة فارتي في الآحاد من الأسابيع. في كلّ الأسابيع ترافقه أنفاسها، تُذكّره دون أنْ تدري بما غفلته أوروبا - وفرنسا على الأخص - وما نسيه وتناساهُ سواه. وتُذكّرُه، غير واعيةٍ، بالأمير العربي.

إيهٍ على الأمير المقْهور المُتعب، ومن حوله ذكرياتُ البلد الجميل المُؤّثِّرة، تطوفُ حولها لتَخْدِشها وخزاتُ روان المؤرقة.

لقدْ تمكّن الشّغف والوَلَهُ من قلب روان، أو هكذا تستشعر، كأنّها لا تكلّ ولا تمل. فهي في خدمة الأمير رغماً عنه وعنها، وكلّها رغبةٌ في التّمتُّعِ بما يُحلّقُ في فضاء نفسها، التي تتُوق للارتواء من خمرٍ لم تطَلْه، كي تحظى بجُلوسٍ على مُتّكئٍ حلمت بتحقيقه - من قبلها - امرأة العزيز، عساها تحظى بشيءٍ قد لا يُدْرَكْ.

لقد سطت الرّغبة على روان، فحدّثت نفسها ككلّ اللّيالي:

- "سوف أنال رغْبتي منه..".

... لقد فعلتْ، في ليلةٍ كسابقاتها، ما كانت تُريد، فأفصحت للأمير بما تُكابده بهمسٍ.. ولمس... ما تُراها ستجني؟

اقتربت من الأمير، قبيل أن يأوي إلى فراشه مُغادراً، لتسأله:

- أتحتاجُ إلى شيءٍ، سيدي؟

وإذ بظُلْمة الرّواق تحجبُ تقلّب وجه الأمير، دون أن تحجب ردّه:

- لست بحاجةٍ إلى شيءٍ، يا أَمَةَ الله...

ليَستدْرك بسؤالٍ، يُذهِبُ ما ترغبه روان:

- لِمَ غادَرْتِ بيتك في الأسْفل وتركْتِ زوجك؟

أُرْغِمتْ نبْرة الخجل الأُنْثوي على الظّهور فوق شفتَيْها لتقول:

- إن المُشرف على القصر يسألني دوماً أنْ أُحسن خدمتك سيدي. ويُلحّ علي أنْ أكون آخر من يتفقّدك.. إنّه عملي سيدي.

ازداد الأمير في أعماقه مُعاناةً وهي تَدْنو منه مُتحدّثةً، مُتأوِهةً بخفاءٍ وجفاء، وكأنّها اقتبست قافِ المَيْلِ بالأجساد وصَرْعِ العيون...

سبقها الأمير قبل هَمْسِها:

- يا أمَة الله، لقد صبَرْتُ بما يكْفي، على أحاديث دواخلك وتمايل بدنك. ولن تجْني - ولا أنا - من ورائها شيئاً. فاذّهبي، ورجائي ألاّ أراكِ.

ترك الأمير روان وحديثها، ليأْوي إلى فراشه ومخدعه. وبقيت روان وحيدة، غير قادرة على المزيد من تتبّع الرّغبة ونشدِ اللّذة، التي وُلِدَت بعد ما نظرت للأمير أوّل مرّة... ولكنّها كلّما اقتربت منه لكأنّها تدنو من سياجٍ من حديد، ليَضلّ هذا السياج رفيقها كالظّل يُبْعِدُها عن الأمير رضا.

استسلمت روان – أخيراً - غير راغبةٍ للانزواء بعيداً عن الأمير العربي. فنفسها، لِمَا تَرْغبُ فشِلَتْ. ولكن أنفاس الحكمة التي استعارتها للحظاتٍ من الأمير، حمَلَتها حيناً من الزّمن، لأَنْ تكون مثلما رغِبَ الأمير واشتهى.

بحيرة الملائكة

6

بعد أربع سنوات... 1852

وقف الأمير على باب القصر الذي سجنه لسنوات ليست بالقصيرة. وها هو من عذاباته - التي تختزنها أعماقه - يتألّم، ولا عزاءَ له في كل ساعةٍ إلاّ تلك الجلسات المُفْعَمَةُ الحب والعرفان من مراسلاته إلى كبار الأساقفة الفرنسيين، أولئك الذين يستشفّ منهم شيئاً من الدّعة والهدوء. فلا يجد لسعادته لِجاما، حينما تأتيه الأخبار من تلك الأرض التي تركها، والتي كلّما تلقّى من أُسقفها - راعي المسيح في أرجائها المُوحِدة - إلاّ وازداد لها شوقاً... وعنها بكاءً...

ولا زال يذكر حين سأله نُخبة فرنسا، عن خيام البادية ومنزلتها، حينما قارنوها بإقامته بـ أمبواز، هذا القصر المَشيد بأحجار القرون الوُسطى، والحامل لآثار شفرات الرّسامين المبثوثة في أرواحهم مع كلّ جدار. فما كان جواب الأمير، حينها إلاّ:

لا تذممنّ بيوتاً خفّ محملها ... وتمْدحنّ بيوت الطّين والحجر
لو كنت تعلم في البدو تعذرني ... لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
أو جُلت في روضةٍ قد راق منظرها ... بكل لونٍ جميلٍ شيّقٍ عطر
تستنشقنّ نسيماً طاب مُنتشقاً ... يزيد في الرّوح لم يَمرُرْ على قذر
فيا لها من وقفةٍ لم تُبق من حزن ... في القلب مُضنى ولا كد الذي ضجر

ولكن، ها هو يُغادره مثلها جيء به أوّل مرّة، إنه يُغادره وأمام ناظريه ذلك السيف المُرصّع بالذّهب، كأنّه يوقظُ ذكرياتٍ، يبدو أنّها سترافقه مع تلك التي خلّفها

في أرضه المهْدُ. السيف الذي أهداه إيّاه سليلُ إمبراطور فرنسا قبل أن يُغادره موَدّعاً، ليذهب إلى حيث يرغب. ولا زالت كلماتُ العاهل ترنّ في أُذن الأمير رضا:

- إليك من فرنسا، ومنّي أيُّها الفارس النّبيل، هذا السيف. علّه يكون بريق مودّة مثلما هو أداة بُطولة... بطُولة أراها ماثلةً في ثوب صفائك ونقائك.

لم يجد الأمير إلاّ القول:

- لك الشّكر أيّها الملك.

وبابتسامة المُلوك، ردّ العاهل:

- شُكري... ألاّ تشهِره في وجه فرنسا!

ردّ الأمير بنبرة التّأكيد الهادئة:

- أيّها الملك، لو كان ما تقولون، لما رأيتني بينكم اليوم وفي حضرتكم! أَمَا وقد أهديتني ما أهديْت. (وأمْسَكَ الأمير السيفَ من غِمْدِه، ليسْحَبهُ بهدوءٍ ومعها سرعة، أدهشت الجميع وهم يسمعون صليله، صليلٌ أحيا فيهم إبهار الفارس الجديد... إنّه فارسٌ بحق. وما كان ذلك إلاّ حنين يديه لبريق السيوف..).

ليُجدّد الأمير التّحديق فيمنْ حوله، باعثاً بالحديث المسترسل إلى سيد فرنسا:

- .. وتأكّد أنّ سلامي هو قلمي، الذي أرْجَع السيف إلى غمده (ليُرجع الهدية إلى مكانها).

اقتربت ساعةُ الرّحيل، وحُمّلتْ أمْتِعَةُ المغاربة السائرون نحو وُجْهتِهم المشْرقية، نحو أنفاس سَلْطَنتِهم. إنّهم يحنّون إلى سماع الأذان، هذا الصوت الذي حُرِموا من سماعه في ديارٍ اتسعت صدورهم فيها لأجراس الكنائس البريئة... أمّا أصواتُ الأدْيِرة فلم يُسْمع لها حس. وبقي السّؤال:

لِمَ يُخْفِ عُبّادُ كلّ ديرٍ عن الدّنيا أصواتهم؟ أليسوا أهل دينٍ وعلم؟ أم تُرى ما زالت عُقْدة بني إسرائيل تُلاحِقُهم، رغماً عنْهم. منذ آلام المسيح إلى تحدّي النّبيّ العربي لهم مع فجر القرن السّابع.. حين السّؤال عن الرّوح... وماهيتها...

مرّ زمنٌ، حينما استيقظ في نفس الأمير سؤاله الأوّل، عنْدما وطأ أرض أمبواز أول مرة، لمترجمه إنيليت حينما حدّثه عن روان، مثلما حدّثه عن جميع من في القصر، وكيف جاءت لتلتحق بالأمر الملكي في خدمة الأمير ومن معه.

سؤالٌ ألحّ على الأمير - حينها - ليبعث به على إنيليت:

- اعذرني بالسّؤال، ولا يذهب بك التّفكير بعيداً، ولكنّ السُّمرة غريبةٌ عن هذه الدّيار؟

لم يستغرب المترجم السّؤال، ليسيل بأسرع من ذلك جوابه:

- سيدي، روان هي لأبٍ سكندنافي، وهم أهل الشّمال، وأمٍ حبشيّة، جيء بوالدتها من رقيق تلك الدّيار.

وأضاف إنيليت للأمير مُهتماً بالجواب:

- ... وقد أخبرتني أنّ أمّها أُستبْدِلت - بكل احتقار - بلوحة تُغري العين لفتنتها.

جال الاستغراب في نفس الأمير، قائلاً:

- هل أخبرتك روانُ - هذه - بقصّتها؟ أم هو شخصٌ آخر؟

أجاب لامير كأنّه بذلك أراد إبعاد الشّك الذي حلّ في نفس الأمير للتّو:

- لقد أخبرتني روان برحلتها الشّاقة من الدانمرك إلى هنا، بعْدما طُردت أُمّها، ليرأف بعض الفرنسيين بها.

ليتدخل الأمير سائلاً:

- أليست المسافة بعيدة؟

- لقد عبروا عبر البحر، والخوف يسكنهم من تُجّار الرقيق...

بعد أحاديث إنيليت العارف بما في أمبواز وخارجه. كان الأمير على أملٍ أنْ يعرف الجديد، والسّؤال في أعماقه يجول كأمواج ذلك اليّم قائلاً له:

- ما سرّ إغوائها له دون سواه من المُرافقين... الأكثر منه شباباً.

بحيرة الملائكة

7

غير أنّ جواب السّؤال عُرِفَ فيما بعدُ، حين سنحت الفرصة لأمّ الأمير، وساءلت روان قبيل أنّ يشُدّ الجميع الرّحال مُوَدّعين باريس وأهلها. لتكشف - ما لم يكن للأمير سراً - ميلها إليه، بقولها في لحظة صفاءٍ من النّادر أن كانت بين المرأتين، بدأت بسؤال الأم:

- يا ابنتي، ربّما اعلم بما يدور في خلدك.. فهلاّ حدّثتني؟.. إنّنا أهل المغرب، عرب أهل عاطفة، وكُلّنا إدراك أنّ للنّفس أغواراً وأسرارا؟!

استدارت روان كأنّها تُريد الفرار بوَجْهِها. فقاطعتها السيدة عساها تُعينها على البَوْح، قبل الرّحيل:

- آثرْتُ أن أترُكك تبوحين لي دون إلحاحٍ بالسّؤال.

فبدأت روانُ بسرْدِ حكايتها، تُقابلها السيدة بهُدوء وصمتٍ، وهما على حافة سرير في غُرفة الأمير الدّافئة. وعلى روان مزيجٌ من ناظر حادٍّ ساحر، ومُقْلةٍ واسعة تُخفي الأسرار وتَجعل السّامع - كأُمّ الأمير - يشفق. وهي تقول:

- سيدتي! ذات يومٍ، سألتُ والدتي:ما سرّ بُغض والدي - أو هكذا اعتبرتُه - لكلّ ما هو شرّقيٌ؟

فقالت:

- والدك - كما تعرفين - لم يعتبر هذه الشّرقية السّوداء (وهو يقصدني) زوجةً له قط. بل ما كنت إلاّ مأواه الجسدي، كنت موطن رغبته فحسب... مقبرة كلّ نزوة.

فقاطَعْتها حينها:

- أنا... نتاج هذه المقبرة؟

أجابتْني، وهموم السّنين ما عادت لها تأثيراتٌ عليها:

- يا ابنتي كلّنا في القُبور أجساد راقدة...

وهكذا، استطرت الأم الحبشية سرد حكايتها، وإذ بها، مع كلّ جزء من حكايتها، توقظ الأشجان في أعماق ابنتها، التي تربّت في كنفِ أبٍ مولع بمقبرة الجسد، وأُم أضحت طيف انتقام، ما فتئ أنْ أصبح سناؤه جذوة تزداد اشتعالاً في داخل ابنتها:

- كان جدّك - يا ابنتي - رسّاماً من طينةٍ نادرة. واكتسب المَزيد من التّمرُس في الدّيار التي جئتُ منها، على يد مُسلِمٍ من أرض فارس، استقرّ به المُقام في الحبشة لتجارةٍ كانت لوالده هناك. فنقَل من فارس ريشة الخيال المُزيّنة بالجمال. وتوطّدت - كعادة الأشياء - علاقة إنسانيّة حميمية (أو هكذا علِمْت يا أبنتي من المُحيطين من أهل والدك)، جعلت من الرّسام الفارسي جلال غالي، مُعلّما لهذا الشّمالي الرّاغب في إحياء حِرْفة أجداده في عالم الإبداع الإنساني الموروث.

لتُضيف روان:

- سألتُها من جديد:- وهل أخذ الوالد ما كان يرجوه من مُدرّسه؟

أجابت الأمّ دون إطالة:

- بل فاقَ مُعلّمه...

توقّفت الأمّ الحبشية مليّاً، كأنّها تودّ أنْ تنطلق إلى مرحلة أُخرى من حكاوي الماضي، لتُضيف:

... إلى أنْ حلّ يوْمٌ، سرى بين الرّجلين جفاءٌ ليربو إلى الخصام..

استيقظت أمّ الأمير روان تروي حكايتها، وكأنّها شُغِلت لهذا الجّفاء بعد شُرودٍ ملأها غداة سرد روان، وسألتها:

- ما سبب ذلك؟ وما شرارة الجّفاء؟

واصلت روان:

- قالت والدتي:قبيل هذا اليوم رسم الجد - يا ابنتي - لوّحة لرجلٍ أسماه "النّبي"، بملامِح عربيةٍ وجبْهةٍ مُتّجهة إلى بيتٍ مَلْفوفِ بالسّواد، وكلّ الجَسد عارٍ إلاّ من

قِطعةٍ بالية تكاد تُغطّي الدُبر... استغرب الفارسي، يا ابنتي، وهو يرى ما يحْمِلُ الشّمالي في يده.

أبْصرت والدتي إلى منديل الخبز المُلطّخ بالسّواد لتُضيف:

- وزاد استغرابه حين أهداه جدّك ذلك الجسد المرسوم في قطعة قُماش كهذه، والتي خُدِشت بثورة جلال غالي هذا المشرقي، على تلميذه الغربي، بصوتٍ كبّله التّهالك:

- ما هذا يا ريموس؟

لاحظ التّلميذُ تبرمَ مُعلّمه، وكأنّه أراد تجاوز ذلك بالقول:

- إنّها هديتي لك. وأرى الإبداع أجمل شُكرٍ لأُستاذي...

سكت جلال غالي، كأنه أراد إخماد ثورة الشّرق فيه، ليردّ بهدوء:

- لا أخوض معك جدالاً ريموس عن مكمن الإبداع ومواطن الجمال، وأحسبني أودعْتُهما في قلبك لا في يدك، وكذا لا أُذكّرك بما تعرِفُ عنّا من حِشمة - أنت أدرى بها - من الجميع...

تلَعثم ريموس وهو يهمُّ بالرّد على أُستاذه. ولكن جواب الفارسي الغاضب قاطَعه:

- خذْ هديتك...

استطرت أمّ روان من جديد، واصفةً الموقف كأنّها واقِفَةٌ عليه، مثلما وقف لامير بين حوار العيون المُنْبَعِث من روح الأمير وإنيترمال، في شتاء ذلك العام، لتَقول:

- وجمَ الوَجهان، ولم ينظر أحدهما إلى الآخر... حتى خرج جدّك السكندنافي، وفي حُضنه لوحةٌ، لا يعي أنّها فتحت عليه، أبواب الجفاء الأزلي.

واصلت روان، وهي لم تنس بعد أنها تُخاطب أم الأمير:

- سيدتي، عاد الجد مثلما حكت والدتي، وعادت معه تلك اللّوحة التي لا تزال لحدّ السّاعة، في رُفوف مكتبة بإحدى كنائس الدّنمارك، تنتظر - رُبّما - فتنةً من يدٍ توقِدُها.

عاودت الأسئلة الجلوس على شفاه أمّ الأمير. وبعَفوية البّادية سألت عمّا حلّ بالفارسي، وهي تُحدِّقُ في روان:

... هل بَلَغَهُم، منذ ذلك الحين، حديدٌ عن مُعلّم جدّك؟

سكتت روان كأنّها تُحدّثُ ذاتها:أنا نتاجُ الجد، تماماً كلوّحته تلك. لِتُجيب أمّ الأمير:

- لقد سألتُ الأمّ عنه، فما قالت إلاّ:أرسل جلال غالي - في عيد الميلاد - رسالةً بالعربية، اللّغة التي أتْقنها الجد. وفي ثناياها لوحة أقل حجما من تلك، وعلى هامِشها تعليقٌ شغل كلّ الذين رأوه..

فَسَأَلْتُها:

- وما كُتِبَ عليها يا أمّ؟

- لم يعلم الفارسي أنّ تلميذه غادر الحياة، ليقول في رسالته إليه:.. (هذه هديتي إلى تلميذي الكتابي وأهله، وهي للسيدة العذراء وفي حُضنها صفاءٌ ونقاء. وكما ترى فهي أنْقى وأعف من أيّ صورة أُخرى).

بحيرة الملائكة

8

انتبه الجميعُ أنّ الوقت قد حان، وأضحى نفيراً للمُغادرة. وأنّ ساعات الحكايا واستعادة ذكريات الضغينة ومحوها قد زالا، وأنّ هنيهة الرّحيل تنتظرُ الأمير وأهله.

استذكر الأمير، وهو ينظر إلى السّماء التي تحن إلى الأمطار، لحظة رؤيته شاعره لامارتين.

هذا الشاعر الذي ما زال من مريدي ساعات الرّاهبة، ولم يعرف أي أول الآحاد ذلك الذي جمعهما، وأيّ شهر بدأ يؤلف بينهما. ما يدريه لامارتين حقاً، أنّ السنوات القلائل، لا زالت - بحق - قليلةً، في أنْ تستظهر وتعرف مكامن الرّاهبة، بعدما لم تجد عنْه صورتها الوَرِعة المُحتشمة المُغلّفة بحقيقة الصّفاء.

ها هو أحدٌ جديد، و (الكاروس) فيه وفي جوّه اللّطيف الهادئ النسمات، تسير حاملة كلا الرّوحين، كأوّل مرة. وما الاختلاف فيها إلاّ سائقها الذي غيّبته أعاصير المنيّة، ولكن رائحته ما تزال في لجام (ميراج) عبر ولد إنيستاد الذي يشدّه.

وكعادته يستمر لامارتين في دوام السّؤال نحو الرّاهبة فارتي ليقول لها:

- بعد تصفّحِ مخطوطاتك أُختاه... ما شدّني حقاً - والأسفُ يعتصر هذه الأنفاس - هو عدد القتلى من أهالي تلك الدّيار...

ليُجدّد سؤالا آخر، غيّبَ حديثه الأول:

... ولكن ألمْ تخشي - وأنت راهبة وامرأة - أن يقرأ القادة ما تكتبينه، ويُلصقوا بالرّاهبة ثوبَ التّحريض على العِداء نحو جُنْدِ الصّليب...؟

استوقفته والإصرار - كعادتها - على المُحيّا:

- أتعتَقد أنّني، إنْ لم أدوّن، سينسى التّاريخ ذلك. وهل هؤلاء الأهالي، والحق أنّهم ليسوا كذلك فهم أهل مدنيّة وإنْ تبدّوا،... تراهم سينسون أصناف الأسلحة والعتاد والقوّة تلك التي كُبّلوا بها؟

جاوبها، وفِراسة السياسي رفيقته، ولأمير كظلّه الوهمي يُراقبُ ويُصغي، ولا يعي أيُصدّق ما يسمع ويرى، أم يُصدّقُ أحلاما أو شبه أحلام...

- تُراه سيأتي يومٌ، ونُجبرُ على الاعتذار عن الخيبة؟... فما الأيّام وثوبها الأنام إلاّ سجال. والدّنيا سويعات لنا وأُخرى علينا.

لينظر إليها من جديد:

- هكذا أُختاه تعلّمت. فبالأمس كُنت العزيز واليوم أراني في عين الأحلاف حقير.

استيقظت آلام لامارتين، التي فاقت حين ذِكْرِ هموم سواه. وكأن الرّهبة استأثرت بإحساس الشّفقة التي تطغى في ساعاتٍ قلائل كلّ قلب يئنّ أو يستشعرُ الأنين.

واستطْردَ الشّاعر، وهو يُبْصِرُ بعينٍ بدت كخلفية الكاروس، المَسْقية برذاذ ذلك اليوم:

- يبدو أنّ قُلوبنا، أُختاه، أمْست كأولئك الأهالي. فلا هي تقوى على الرّجوع لماضٍ أمسى سرابا. ولا هي بذات الحول وتلك القوّة على صدّ ما اعترى أراضيها، من موجٍ يدْفعه السّلاح المُدجّج والجحافل القويّة.

رنت الرّاهبة للشّاعر المُفجعِ بذكراه، والحانق على ما سمع وقرأ وعرف عن تلك الدّيار، وكأنّها أرادت أن تحْتوي الرّوح السّاكنة في القلب الذي ازدادت له قُرباً. وكم خشيت ألاّ تزداد إلاّ قُرباً. وببوحِ الرّهبان قالت:

- هلاّ سمحْتَ لي بالمُغادرة؟

أجابها الشّاعر وقد طغت على يمّه أمواج الإبهام:

- عفواً، أُختاه.. ما الذي اعتراك حتى تُغادري. ألست عبداً صالحاً أو يهفو للصّلاح، مُتشجّعاً على نشرِ هذه الأدْران الإنسانية أمامَ نقاء الضّمير الحي؟

عَقّبَتْ، وصراحتها دوماً في انسياب:

- أطلُب العفو هذه المرة. فما أخشاهُ - الآن - أنّ الأدران لن تجِد إلاّ مثيلاتها!... رجاءً دعني أرحلُ الآن.

وقبل فرارها السّريع، رنت إلى لامارتين وثغرها يبوح:

- أعِدُك، أيّها الشّاعر، أنّك ستجدني أينما كنت... ورغبت.

... ورحلت الرّاهبة، تاركةً موعدا مع القدر للشاعر، بعد أن وُلد في داخله شيء كاد يموت... أتُراه سيولد حيا؟

بحيرة الملائكة

9

رُحّل الأمير - ودُموعه مُستحيية، لتنفجر في أعماق قلبه - نحو الوجهة التي اختار، على غير ما جاء عليه في شتاء 1848. أمّا عاد مرافقوه معه الآن، أولئك الواجمون، الصّامتون وكأن على رؤوسهم الطّير.. بل رحل الكثير منهم للاّعودة..

ودّع الأمير أمبواز، بعدما ودّع باريس، هذه المدينة السّاحرة التي لم تُغر الأمير، حتى في الموكب الفخم الذي رافق تكريم الإمبراطور له.

وكم كانت مفاجآته كبيرة، بجُندي يُبْدي إلحاحاً كبيراً ليُرافقه حتى الحدود الفرنسية، تلك التي تُطلّ على واجهة المتوسّط طولون. جندي من أولئك الذين يشدّهم الفضول... هذا الفضول ذاته الذي أغرى مترجم الأمير ورفيقه إنيليت، ليطْلُب بدوره صُحْبة الأمير إلى حيث سيودّعه... فمُهمّته بدأت من أمبواز وعنده انتهت.

نطق الجُنديّ المُتشجّعُ بحالة الصفاء التي اعترت الأمير لساعة:

- سيدي، هلاّ قبلت مُرافقتي لكم؟

رحّب الأمير بإشارةٍ صَحِبَها صوت القبول:

- على الرّحبِ والسّعة.

وانطلق الرّكبُ، وعرف الجُنديّ بأنّ رهبة شخص الأمير هي من سبقت رؤياه الجسدي، فشدّه الفضول ثانيةً، لسؤال الأمير مُجدّداً:

- أراك سيدي ما زلت قوياً، كأنّك لم تكن بين أصفاد السّجن؟!

سرى جواب الأمير على سجيّته:

- لم أكن يا ولدي.. سجيناً!

لم يستغرب إنيليت، وهو مع كلّ حرفٍ يُترْجمه من جواب الأمير ينْبُضُ قلْبه، ويزداد لهذا الأمير تقديراً. وبالأخصّ منذ ذلك اليوم، حين احتفال إنيليت خِفْيةً - ولوَحْده - بيوم الغُفران.

حيث إنّ فراسة الأمير التي ورِثها من تراجم ابن عربي وابن الفارض من حُميّا الحبّ الأزلي، لم تَخُنْه. وأفصح يومها لإنيليت:

- .. أومن أنّ الله - يا ولدي - واحد، والنّاس كُلّهم لآدم.. 'كل عامٍ وأنتَ بخير'.

قطعت ذكرياتُ إنيليت مع هذا الأمير العربي نظرات الجُندي بيرنار، والتي بدت كأنّها تبوحُ بشيء.

بدأ بيرنار - حين اقترب من الأمير - يُحدّث نفسه والغرابةُ ضِلّه:

- كيف لهذا الرّجل الأعرابي أنْ يحظى بجلال الاستقبال من عظيمِ فرنسا وأهلها؟ كيف لهذا البدوي أن يملأ الدّنيا بفرنسا ويشغلها؟

سرتْ أحاديث الجُندي كالموج الأثيريّ الهادئ، والأمير ينظر إليه، كأنّه يتصفّحُ ذاته من خلال عيون الجندي، التي كانت لهندام الأمير وعيونه - التي سحرت قلب روان - مُحدّقة. ليَقول الأمير:

- أيُعجِبُك هذا الهندام؟

هزّ بيرنار رأسه، الذي تعوّد الانضباط الموروث من زمن نابليون قائلاً:

- الحق كل الحق أنّه يُعْجِبُني! وأراني لا أكتُمُك سراً، إن طلبتُ منك تشريفاً - وأنت الأمير - بحملِ شيءٍ من بادية العرب...

لم يستهزِئ الأمير بشَخْصٍ قط، غير أنّ السّؤال استثاره:

-... ولكن، أيروق للأُوروبي هِنْدام هذا البدوي، الذي ما زالت تلُفّه قمصان القرون الوسطى؟

واستطرد بشيء من اللّين والرّوية:

- أتروقُ لك أيّها الجندي الأنيق رائحة الشاة والماعز؟

لم يجِدْ الفرنسي تعْليقاً، إلاّ شيئاً من المُسايرة والانصياع لِما يقول الأمير، بإشارة الرّضا المْوسومة بالعَينِ التي يعْلوها الحاجب ليَستقِرّ في مكانه.

بدأتِ الشّمسُ في المغيب، وهي تهوي إلى مهدها مثلما تهوي الأجفانُ إلى مأواها، ولكن الجندي لم تنْجَلِ من أعماقه فقعات الازدراء بعد، وإنْ شابها العرفان الممزوج بالفضول لهنْدام الأمير الذي أهداه إيّاه.

توقّفَ الجمع عند خانٍ قريب بوسط "ديجون"، المدينة الصغيرة الهادئة، ليَدخُلَ الأمير إليه وهو يميل عن عربته، وتحت إبطه سجّادة الصلاة التي لم تُفارقه قط، ليأوي إلى جناح من غرفتين وُضع في خدمته - بطلبٍ منه - فهو كعادته لا يترك تفاصيل الأشياء إلاّ ويتوَقّف عنْدها مليّاً... فهو دائم الاطمئنان على أهله ومنْ معه.

مع هذا الحِرْص الثّقيل والتّعب المُرْهق، لا تُفارق البسمة ولا نغمة الانشراح مُحيّا الأمير، عندما التفت إليه بيرنار طالباً منه - بمُجرّد أنْ وطأت أقدامهم هذه المنطقة - الجلوس إليه لساعة. وكأنّ فترة مرافقته له لم تشبِع نهم وفضول الجندي والمترجم معاً في الحديث مع الأمير. ليبدأ بيرنار في الحديث، وبين يديه أمْتِعة الأمير، وبجانبه إنيليت:

- .. الحديث إليك ومعك، سيدي الأمير، يُنسي مشقّة السّفر.

ليرُدّ الأمير:

- لم تكنْ هذه الرّحلة، التي نحن في شطرها الأوّل، بأكثر مشقّة من مثيلاتها منذ أربع سنوات.

حدّق إنيليت بالأمير سائلاً إيّاه كأنّه يتأكد:

- هل كانت رحلتك مُرْهقة حقاً؟

تنطلِقُ من فيه الأمير زفرةٌ، أحْرَقت الهواءَ المُحيط بالوفود المُختلفة الأعراق، قائلاً:

- إنّ السير وسط فُسْحة الحياة أشدّ وقها وأكبر مشقّةً، حين تُدْرك أنّك ستبقى بين جُدْران أربع بعيداً عن الأهل والدّار... وأصوات من في الدّار.

قاطع إنيليت الأمير:

- ولكن. الأهل رُفقتك سيدي! والعدد الكبير من عشيرتك قد أنساك أعباء السّفر، والبُعد..

استيقظت من أعماق الأمير زفْرةٌ أُخرى:

- أهلي؟.. أهلي هم أنفاس بلدي، صدى أطيارها وهمس ما فيها من نسائم المسا. وداري - أيّها الكتابي - هضابها وروابيها، أمّا مطيتي فهي فرسي تلك التي ترافقني أينما حللت.

سكت الأمير. وبدا كأنّه يستذكر لسان الشّاعر في أعماقه، فيأنس بذكرى لامارتين، ويُنشدُ بين أعماقه.

بحيرة الملائكة

10

أخذ إنيليت زميله بيرنار، واتّجها سوياً على أنغام حديث أميرهم إلى مأواهما، ليستسلما للنّوم، عساهما ينهضان على نور يومٍ جديد، وُجهتهما فيه "ماكون" بصحبة الأمير.

ماكون، هذه البلدة الوادعة الهادئة، التي تدعو المغاربة إليها، ما زالت عربة الأمير لم تصل بعْدُ إليها. فـ ميلي - بدايةً - تدعوه إليها.

ها هي ميلي تستيقظ مع أشعة الشّمس المستحيية. شمسٌ أهدت الشّاعر لامارتين سلاماً وهو في بيته، يرشّ على وجهه قطراتٍ من الماء، عساها تُذهِبُ عنه نُعاساً لا يزال يُصرّ على البقاء كالطّيف على مُحيّاه، بعد أنْ طاردته الذكريات والأماني. أماني كانت فارتي موقظتها.

استيقظت أماني لامارتين مع هذا الصُبْح النّدي، وهو يأخُذ كالعادة فنجانه الصّباحي، ومنه يُطلّ عبر نافذته على كلّ ما يُحيطُ به، كأنّه يتفقّدُ هذه الطّبيعة الهادئةُ، المُلْهِمة وداعةً ورقّة، وإن استشعر لامارتين، على غير العادة، غرابة هدوئها. هدوءٌ لا يُشابهه إلاّ هدوء لامير حين استلْقى على الكُرسي الخشبي، الذي استعارت منه الطّبيعة، بغيثها وشمسها، دهاناته الخضراء العُشْبية الدّاكنة. ولكن ما تُرى يكسر هذا السّكون؟ أهو صوتُ العُصْفور الذي اعتاد أنْ ينقر حبّات القمح من يدي لامارتين، أمْ نداءُ صاحب الحليب الذي اعتاد بصوته العالي إهداء التّحية حينما يقول:"بونجورbonjour" كلّما مرّ بـ ميلي قاصداً ماكون؟

استدار الشّاعر ليُلقي نظرة خاطفة على مكتبه، وعلى أوراقه البيضاء التي تستضيف على بساطها النّاصع قلم حبْر أزْرق، زُرْقةً يُحبّها إنيترمال.. رُبّما استقى

محبّة اللّون هذه من شرفات مكتب وزارته في أيامه الخوالي. ليعود بيده إلى النّافذة، ويتلطّفُ بفتْحها.

وما إنْ فتحها، حتى هوت من المكتب ورقةٌ غادرت رفيقاتها، كأنّها بذلك تُغري يد الشّاعر بحملها. ومع انسياب حفيف سقوطها الهادئ، بترسيف الصّدى، المُنْبَعِث من عربة مارّة بالبيت، هدوء صوتها. عربةٌ تسير ببطءٍ ووقار، لا يضاهيه إلا وقار الأمير العربي المُتكئ فيها.

تقدّم لامارتين أكثر إلى الزجاج بعد غلقه، وكأنه يخشى من رؤية المجهول أو دخوله. فما عاد الشّاعر المُلْهَمْ يأمنُ الزّمن، فأيّ نسمةٍ تأوي إليه إلاّ وخشيها، وإنْ آوتْ إليه مُحبّةً عاشقة، مثلما أوت إليه أنفاس فارتي ذات يوم.

وقبل أن يخطو - وهو في غرفته - أيّ خُطْوَةٍ، أصغت أُذناه إليه! إلى الهاتف الكامن فيهما من قبل، أصغتا من جديد إلى الأمير رضا، أجل إنّه أمام بصره. لَكأنّهُ يبْعثُ إليه التّحية قبل ذهابه إلى ديار التّوحيد وأفنية الأذان..

تقدّم لامارتين إلى زجاج نافذته أكثر، وهو يُسابقُ أنْفاسه التي علقت بالزجاج، وكأنّه يسترقّ همس الأمير.

أمّا خارجاً، فبين عربة الأمير و"الكاروس"، جلس طيف الزّمن، طيف لامير واقفا، وقد استعار - دون أنْ يدري - من الكنيسة هنداما يقي جسده سيل المطر، مُنْصتا بشغفٍ إلى تحايا الشّاعرين، وحديث الشّعراء:

- هل نمتَ جيّداً أيّها الشّاعر، أم تُراك مثلي طريقك في الحياة شاق، وذكرياتك عالقة بالأجفان؟

- حتى "صباح الخير" ما عادت تقوى على الخروج من الثغر.. ما زلت مثلك لطريق السُهاد مُتْعب..

- ها هي الخُطى بعثت بي إليك. ولم أشأ أذهب إلى وجهتي دون إلقاء التّحية على روح زكيّة، حملتها كالأريج النّائم على جُدران بيتك الهادئ.

- أدري يا صاحب الجلالة - ومقامك الأرفع - أنّك لا تحفل بأيّ مشروب إن استضفتك، ولا بالجلوس إنْ قدّمتُك... أدري أن أنفاس الحوار التي بثّها الرّب بيننا أسمى عندك - وعندي - من الخوض في براثن الحياة الزّائفة التي تتبدّى للنّاس جميلةً رائعة.

نظر الشّاعر إلى السّماء ورنا إلى العنان من جديد، وأعاد الكَرّة إلى الأمير وكأنّه أبصر التّعب، وذكّره محيا الأمير العربي بسؤال فارتي له.. (سيدي، الإرهاق والوجه مُصفر يُخيفاني ويُقلقاني، فهل بك مرض؟).

عطس الأمير وبين يديه منديل من حرير وطنه، ربما كانت عطسته جواباً، وها هو الزّكام الأوربي يُعاوده من جديد، ليُجيب شاعره:

- ذكّرتني أيّها المُلْهِم بأرواح من فقدت...

- للموت - سيدي - أسباب. وفراق الأحبّة فاجعة، بأيّ وجه كان!

- ــ إنّها الحُمّى.. المرض. ولكن أَمَرّ وداع، وأمرّ فراقٍ.. فراقُ من تُحبّ في دار غير الدّار.

ساءل الشّاعر أميره، ووجههُ يُبدي ما يختزن في دفاتر مُضغة الصدر:

- سيدي؟ هل فقدت في ديارنا بعضنا من أحبائك؟

بكت السّحبُ، كعادتها في ميلي مطرا، ومعها عيون الأمير مُجيبةً سائلها:

- فقدّتُ (وهو يُشبّك أصابعه) أكثر ما يُحسب باليدين!

وأضاف:

- مرض ديار الغربة وقْعه في القلب شديد، وهذا الزّكام الذي يُكبّلني من حين إلى حين، بين جدران آوَتْني رطوبتها لأربع سنوات، كانت خُطوة المنيّة الأولى لأحبّاء غادروا إلى دار البقاء.

حدّق الأمير من جديد إلى الشّاعر وداره:

- وقد دفنْتهم بينكم.. فلم أتْركهم إلاّ في أرض الله. أليست الأرض لله من قبل ومن بعد؟!

سكت لامارتين، وفي وجنتيه عَبَرَتْ دَمْعَةٌ في طريقها إلى إحدى صفحات مكتبه.

أبصر الجمع المُحاط بالأمير رضا، إنيليت، بيرنار، ورفيقا لامارتين الخادم والسّائق.

الكُل نظر إلى العربتين، وهما جنباً إلى جنب، وكأنّهما روحان متآلفان، لا يُشابهما إلاّ تآلفُ إبداعات الفنّانين في آيا صوفيا، هذه التّحفة التي تنتظر الأمير، أين جمعت أجساد المسيحيين المحاطين تآلفاً بأسماء الخلفاء المغروسة في كل عرصات هذا المعلم الإسلامي التركي الأوربي.

بقي لامير في هذه الأثناء، وهو يتوشّح لباس خُدّام المسيح، يُبْصر إلى مسرح الحياة هذا، مُصغيا إلى أحاديث تبدّت بغير شكلها الذي يعرف. أحاديثٌ سرت في

دماه، كسلسبيلٍ دافئ، فتُحرّكه كما تُحرّك أنامله قطعة اللّجين، التي ما زالت تُخفي وجهها الآخر.. مازالت تُبْدي وجه لامارتين وقد ربى كالذّهب من قطعةٍ كلّها فضة. أمّا الوجه الخفي.. فلا يزالُ خفيّا.

حمل لامير قطعة اللّجين، وهو يُغادر مع الأمير ورفاقه، تاركين لامارتين عبر نافذته مع صفحات شعره، مع كل مقْطعٍ من ترانيم القلب، تُحلّق معها الذّكريات لتُطلّ به على شُرفة عيون فارتي، القدّيسة النُقية، التي لم تستلق قط على رحابة صدر الدّنيا، إلاّ على رحابة صدر لامارتين، الذي يُدوّن – مثلما تعوّد - كل ما يختلجُ في قلبه الموجوع، هذا القلب الذي يتدفّق دما وأسى. ومع الأسى يكتب على صفحة الأزمان شعراً، كله حبٌّ وعشق.

وها هو قد وصل مُدونا في دفتر مذكراته وأيّامه إلى الثالث ديسمبر، هذا اليوم البارد الملفوف هواءه بالغيوم، حاملاً قلمه المحْشوّ بالحبر الأزرق الذي يعْشقه. وبدأ في سرد الأيّام الحيّة عساها تستيقظ بعد حين في الأيّام الميتة، لتُحييها. بدأ بوصف وخزات البرد ولسعات القر، التي تركت آثاراً في الورق من فرط اهتزاز الكفّ التي تحمل القلم، من فرط لفح الصقيع الذي يكاد يسبحُ في الهواء.

قارب اليوم على الفناء، وقاربت ستائر المغيب على الانسدال، كالعذراء على جفن هذا النّهار الذي شهد وداعاً دون سابق موعد، بين الشّاعر الذي لا زال قلمه يجول في صفحاتٍ كلها بيضاء، والأمير رضا الذي يجول خاطره وتجول روحه، وكلاهما متأمّلٌ في كل شبر من أرض نابليون.

بحيرة الملائكة

11

تتدفّقُ عربة الأمير فوق طرق فرنسا، مُتّجهة نحو الجنوب السّاحلي، تارةً كبحرٍ لاجٍ، وأُخرى تسير الهوينا. وما زالت رِفقة الأمير مسايرةً له خطوةً خطوة. وها هو سناء البدر يُطلّ عليه، كأنّه رَشَحَ من مرايا النّافذة شّديدة الشفافية، ليختار عيون الأمير - التي سحرت عيون الشمال والجنوب- ليستقرّ فيها.

وها هو الأمير يتنهّد من جديد، يُخاطب البدر الذي ازداد تلألُؤاً، عساه يُخّفف بسناه مشقّة السير وأنين التّذكار:

- ذكّرتني أيّها البدر بليلةٍ، هي عند الله خير من ألفِ شهر..

أرسل البدرُ - في لحظته هذه - سناءه من جديد، كأنّه يقول:

- أيُّ اللّيالي يا أمير القوافي؟

رفع الأمير جفنه المُختزن بالأهداب:

- تلك، ليالي رمضان. تلك التي كانت في بلادي خير من آلاف الشهور. يا بدْرُ:رمضان اسمٌ عربي، اسمٌ كريمٌ هوَ.

مرّت بالبدر سحابةٌ غطّت أشلاؤها شيئاً من سنائه، ليَعود بعد هُنيهةٍ بذات لمعانه، مُحدّثاً الأمير من جديد:

- رمضانُ أيّها الأمير، يعْرِفُني في الميقات.. لأُعْلِمَ العُبّاد.. كلّ حولٍ، وأنا له ناقوس في هذه السّماء. إنّ ناقوس سماء أوروبا غير أذان الشّرق التّليد.

توالت أطياف البدر نحو عين الأمير وكلّ العيون، مُتّبِعةً سيرها الأزلي، لتزداد زحاماً في عين الأمير وقلبه، فتُغْريه... وتُغريه، كما كانت روان بسُمْرتها تُغري حناياه وجنبه العربي. أغرى البدرُ لسان الأمير ليُهدي إليه أقباساً ممّا يختلجُ في فؤاده، وهو في ديار التّوحيد:

يا صاح إنّك لو حضرت سماءنا ... وقت انشقاقها حين لا تتماسكُ
وشهدت أرضا زلزلت زلزالها ... ألْقت ما فيها والجبال دكادكُ
ونظرت أرضا بدلت وسماءنا ... وبرْزخنا حللنا وكل هالك
ثمّ الأنة والمهيمن يلقى من ... آياته يقول أنت مُبارك
لشهدتَ شيئاً لا يُطاقُ شهوده ... وسمعت ما لا منه يُدْرك داركُ

بحيرة الملائكة

12

اقتربت العربة المُودَعةُ أرواحاً عربية نحو القرية المأهولة. وهاهي في شومبيري من جديد، المدينة التي تدعو الجميع لأن يرتاحوا. فما كان من الأمير إلاّ سؤال مرافقيه عن مكان الأخت الرّاهبة، مُذكّراً باسمها العائلي. فارتي راعية المسيحية، هذه الوادعة كمدينتها، والتي تحنّ لها أم الأمير والأمير معاً.

لم يجد السّائلون عناءً في معرفة مُستقرّ فارتي. وها هو إنيليت يسأل أوّل عابر أمامه، وهو مُسنّ يكادُ بالجُهد يسير:

- تحيّة طيّبة سيدي. هل تدُلّني أين مسكن الأخت فارتي دو لاكروا؟

أجاب العابرُ:

- لا مأوى للرّهبان - على ما نعلم - إلاّ بيت الرّب؟!

وأضاف المُسن، مُبْصرا إنيليت مُستغْرباً سذاجته!:

- لا توجد إلاّ كنيسةٌ واحدة. استأذن القيّمين، وستجدها - أيّها الغريب - رُفقة الآباء.

- حُشِرتْ أنفاس إنيليت في قلبه، وبالذّاكرة صورة انتشار الكنائس على طول فرنسا وعرضها. ليَستشعر أنّ حقّه في العبادة، ككثير من أهله، قد أمسى ولا يزالُ مهضوماً آفلاً. وسأل نفسه، وهو يحنّ إلى الدّير، رغم ذكراه المريرة مع أحد حاخاماته:

- أحقا الدّين لله؟... والوطنُ للجميع؟

قطع الأمير حديث مترجمه مع أغوار نفسه، وهو يترجّلُ في العودة إلى مُرافقيه وسأله:

- هل وجدت من نبحثُ عنه؟

- أجل، وعلينا السير حتى أول كنيسة!

أشار الأمير إلى مُرافقيه، مُبْلِغاً والدته أنّ ساعة الاستراحة التي ترقبوها قد حانت.

لم يكن المسير بحاجة إلاّ إلى هُنيهات، حتى رأتْ قوافل العرب المغاربة، المشرقية الأفئدة، روح النّقاء وهي تقفُ بقدمين مُلتصقتين ثباتاً، كأنّها استشعرت قدوم أحفاد إبراهيم.

أجل إنّها القديسة فارتي. وها هي تدنو، تسبِقُها خُطى التّرحاب والسّرور.

أوْدعَ الأمير أمّه ووليةُ نعمته، عند راعية الكنيسة، التي رعت أنفاس المسيح الصّادقة. وأقبل على سائق العربة الذي يُذكّر بروان. ولأمير يُنْصِتُ مُقترباً، عساه يَلِجُ مع هذه النسائم الباردة إلى الكُرسي - ليضع عليه لباس الرّهبان الأسود - بقرب الأمير الذي طلب الرّحيل:

- هلاّ أخذْتنا بقرب البُحيرة؟

- أيّ بُحيرة؟ سيدي (جاهلاً سرّهاً وسحرها!)

استدار الأمير لإنيليت، الذي تختزنُ ذاكرته رحلة الأمير من طولون إلى أمبواز ليُجيب سائقه:

- إلى بورجي.

أبصر إنيليت بدوره إلى الأمير سائلاً:

- سيدي؟ هل شَغَفَتْك البحيرة حبّاً لأوّل نظرة، كما شغفت شُعراء فرنسا؟

هزّ الأمير رأسه مُجيباً هذا المترجم المولع بأخبار الأدب والتّاريخ:

- أجل يا صديقي. فالبحيرة سِحْرٌ وشَغَفْ.. وذكرى. وفي كلّ قطرة منها بيتُ شعر، ولحن قصيدة...

ما باح الأمير بكلِمة إلاّ واستشعر لامير، كأنّها تنطلِقُ من شفتيه، لولا أنْ حالَ الزّمن بينهما حديثاً مُتبادلاً. هذا الزّمن الذي رحِمَ لامير حين أهداه رؤيةَ من يهوى أسْفارهم وكُتُبُهم، هو ذاته من حرمه الحديث إليهم.

إن لامير الآن هو منْ يَحِنّ إلى ديار، ليست تلك موطنه الذي أتى منه. ولا بيت ميلاده، ولا الجدران التي آوتْه في الصِّبا وشطر الشباب. بل دياره التي يتوق إليها هي زمنه 2007. لقد حنّ إلى ساعة انطلاقه، حنّ إلى لحظات عزيز صاحب محلّ الهواتف والكُتيّبات و... إلى صباحات مكتبة الجامعة، إلى رسائل ماضيه هُوَ (الذي أمسى الآن مُستقبلاً)، رسائله التي يحتفظ بها وبحديثها...

نعم، يحِنّ إلى قدّيسته، التي تركها في ديار الوطن بـ" وادي الخوالي". ولا يُذكّره - الآن - بها إلاّ ذكرى ميلاده الثّاني والثلاثين.

هذا العُنْفُوان الممزوج بالحنين، أَسْقَطَ من عينيْ لامير دمْعةً، هوَتْ نحو دموع البُحيرة، العالقة بسَطْحها...

وها هو يُبْصر لآخر مرّة - إنّه يستشعِرُ بذلك - إلى الأمير، الذي تركه وراءه وحيداً ورَحَلْ.

رحل الأمير مع الضباب، الذي بدأ ينام على سطح بورجي، وعربته تسحُّ من حولها بقايا الرّذاذ اللّصق بالهواء الدّيسمبري، الباقي من ذكرى الشّاعر لامارتين.

الجزء الثّاني

بحيرة الملائكة

13

لأمير والعوْدة:

سـقطت تلـك الدّمعـة. ومـا كـادت تصـل الأرض، حـتى فاجأتْهـا أنفـاسُ صـبيٍّ بمعطفه الأحمر الجميل، وسرواله الذي تَغزوه الخطوط الحمراء القرميدية الرّقيقة، وببُقْعةِ الشتاء الدّاكنة السّواد، التي أعاد لونها لـ لامير، سواد غطاء ذلك الفتى ذلك اليـافع، الـذي خُيّل لـه أنّـه طرحـه أرضـاً، والواقـع أنّ لامـير هـا هنـا لـم يَغـادر كرسـيه الخشبي!

تحرّك جسمُ لامير بعد غَفْوَةِ القرون، واستفاقَ على صوت الصبي، المُتأخّر على ما يبدو في اللّحاق بأُمّه، التي وقفت تُراقِبُه على بُعْدِ أمتارٍ من الكُرسي الخشبي، الذي لفّته نسماتٌ باردة، جعلت لامير يرتعِدُ وتصطك أسْنانه من لفحاتها. أمّا بصرهُ فقد استقرّ ليرى الدّنيا من حوله مشيدةً بناءً وصروحاً، وكأنّ مزيج الغروب المُبَكّر وضياء الحيـاة الـذي أحيـاهُ مـن نومـه أفقـداه الـوعي، أو شـبه الـوعي. غـير أنّ لامـير اسـتقوى بوُجود الطّفل أمام ناظريه. هذا الطّفل الذي بدا لـ لامير ، حين سأله، بأنّهُ في عجلةٍ من أمره:

- سيدي لقد سقطت هذه القِطعة من يدك!

واستطرد الطّفلُ الذي لم يُواجه لامير بعينيه:

- ومعهـا جوّالـك هـذا، سـيدي! (وإذ بالصّبي مُمسـكٌ بكفّـه الصـغيرة، هاتفـاً فخماً مُسودّاً، به شاشةٌ عريضة، وعلى ظهره اسم "لأمير".

اِلـتقط لامـير هاتفـه ومـن ثـمّ قِطعتـهُ تلـك، مُسـتفْسِراً عـن الصّـبي وحديثـه. ليَجِد الصّبي نفسه يُحدّثُ لامير من جديد، ولسان الصبا يسبقه:

- اعذرني سيدي، وطئتْ قدمايَ قطعتك! وها أنا أمسحُ عنها ما علق بها من بقايا بوريقات المناديل التي أعطتْنيها أُمي...

أمسك لامير بشدّةٍ أكبر - هذه المرة - بقطعته اللُّجينية، وقبل أنْ يُقلّبها نظرَ إلى الصّبي وهو ينطلِقُ إلى أُمّه، وهي تُنادي:"جابريال" تعالى.

انطلق الصّبي إلى أُمّه تاركاً لامير، بعدما أيقظه من القرون البائدة، وهو ممزوجٌ بملامح أوْحت لأُمّ الصبي بتأنيبٍ موسومٍ بشيءٍ من الفطنة. بالكاد سمع لامير ما قالت الأمّ، وآثر الكِتْمان في نفسه، التي اعتاد مُحادثتها في خفاء!... لكنّه ما فتئ أن عاد وحدّثها بغير لسان ما كتم:

- رُبّما هي تُؤنِّبُ ولدها، لكي لا يُحادِثَ من يجهلُهُمْ، وألاّ يعرض خِدْمةً على من لا يُشبِهونه الملامح والعادات... (أو هكذا قالت؟؟!).

قام لامير من الكُرسي، وعاد مثلما جاء من طريق محل السيد عزيز، إلى غُرفته، وهو يُتابِعُ الخُطى نحو راحةٍ، نشدها طويلاً.

استيقظ لامير من نوْمَةٍ هادئةٍ، إلاّ من صداع لم يُجرّبهُ - رُبّما - إلاّ الجوعى... أو الصّائمون. فمنعُ القوت عن الجسد كمنع منابع الرّغبة الإنسانية الجامحة عن الرّوح، منْبعٌ لا يجدُ صدى مُعبّرا عنه إلاّ الصُداع بين الفينة والأُخرى. إنّ لامير يشعُرُ بالصُداع حقاً. غير أنّه سيتناساه كما تناسى أنّه - كمُلهميه - في دار غُربة.

الغُربة المُصاحبة لـ لامير، ذاتها التي استولت عليه حين كان في طريقه إلى الجامعة رُفقة نور، قبيل أربعة أعوام. حين أوقف سيارةً، عساها توصلهما إلى وجهتهما، مُشيراً لها بالطّريق التّقليدية التي تُعرفُ بـ:"الستوب". لتتوقّف - حينها - بالفعل سيارةٌ سوداء، يُخرِجُ من نافذتها السّائقُ رأسه، مُستفهِما الملامح قبل استفهام لامير ورفيقه، بإشارة اليد التي تقول:

- إلى أين؟

أجاب لامير بصوتٍ خافتٍ وحادٍ لفرط الانتظار:

- لو تتكرّم سيدي بإيصالنا في طريقك! وُجهتنا الجامعة... فنحنُ طالبان!

أجاب السّائق بعدما نظر إلى جليسه في المُقدّمة:

- هيّا اركبا!

ركب الغُرباءُ، ليبدأ بعد حين حديث التّعارف بلُغة فرنسية مُحكمةٌ راقية من فيه لامير، كيف لا؟ وهو المُتَفوّقُ منذ الصبا في دراسة اللّغات الأجنبية...

وبدأ - مع التّعارف - تجاذبُ حديث الثّقافات المُختلِفة، بانطلاق السيارة المارّةِ بسفح جبال الألب.

تفوه لامير همساً، بشفاهٍ كأنّها تجاهلت لسهوِها السّامعين الجّالسين:

- كُلّ هذه الجبال! وطمعْتُم في "حمادة" الجزائر؟!

استفهم السّائق فرانسوا من ضيفه:

- بما تَهْمِسُ أيّها الغريب؟

لم يَجِد لامير بُدّاً من مُصارحته بشيءٍ من الدّبلوماسية:

- ألا ترى أنّ بلادكم تزّخرُ بمناظر أكثر سِحراً من بلادي؟

أدرك فرانسوا ورفيقه كريس ما بداخل العربي الغريب. فسكتا وسكت معهما لامير حتى مشارف جرونوبل. جرونوبل التي لم تُغْرِ لامير مثلما فعلت به ماكون، الدّائمُ التّجوال فيها. أمّا شومبيري، فهي ما سحرته بحق.

بحيرة الملائكة

14

استفاق لامير من حديث الغِربة. أمّا الذّكريات فما زالت تصاحبه، وهو في الطّريق إلى الجامعة، فها هي سنته الأخيرة على وشك وداع ثُلثها الأوّل، وما زالت رسالةُ تخرّجه لم تعْرِفْ تماماً واكتمالا بعد، وربّما خاتمتها ستطول...

تدُقُّ التّاسعة من هذا الصباح الدّيسمبري الجميل، وبالكاد خرج لامير مُتثاقلاً، بمعطفه الأسود الذي لا زال برائحة بلدته الممزوجة برائحة السجائر الشّقراء العالقة به من أفواه زُملائه، وهو يحمِلُ أناقة الفرنسيين، المولعين قبل سواهم بما يُسمّى الموضة.

خرج نحو وجهته التي أصبحت قبلة عشقه، وزخّات المطر تُطارده، وهي كذلك منذ قرون. خرج نحو بورجي، إنّه يسير وبمُحاذاته بُحيرتها. إنّهُ يُحاورها دوماً، فهي في الصباح رفيقته من جهة الشِمال، وفي المساء حين عودته رفيقته اليُمنى.

هاهي الزّخات تزداد كثرة وبرودةً، كأنّها تُطارد الهواء قبل أن تهوي إلى الأرض. جعلت هذه الأمطار من وابلها سيفاً اضطرّ لامير إلى الولوج إلى مقهىً قريب. دخل مُسْرعاً ليستقرّ في مكانٍ غير بعيد عن نافذة المقهى الأولى، حيث يُطلّ منها على الشّارع.

كلّ الزّجاج يُذكّره بـ: ميلي وسيد ميلي لامارتين، وهاهي أصواته مع الزّخات تثِبُ إلى المقهى، بلباس الرّومانسية الرّقيق الخافت.

ما زال لامير يُطْرَبُ لهذا الشدو، المُنْبَعث من أعماقه، حتى شقّ صدى الفنجان - الذي سقط من يد أحدهم - ترانيم القصيد.

ليلتفت لامير بقربه متفاجئاً أنّ من أسقط الفنجان وما فيه هو الصّبي الذي شاهده بالأمس، ذلك الذي أيقظه من رحلته التي أخذتْه إلى من يهوى.

تناسى لامير حديث والدة الصّبي وتأنيبها له، لينهض من مكانه، مُستغرباً كيف لطفل في مثل سنّه يقتحم مقهى الكبار، مقهىً يخشاهُ أحياناً الكبار أنْفُسَهُم. قائلاً له:

- مرحباً. (مُبْعداً الصغير عن مكان الشّظايا)...لا تقْلق...

ردّت تعابير وجه جبرائيل على لامير، والشّفاه مُكبّلة كأنّها لا تعرف الحِراك. ليَخْرُجَ مُسْرعاً كأن الخوف يُطارده.

تَبعَ لامير، بعد دفع ثمن فنجانه المُمتلئ بُنّا وسط زبونين يُعمّران المكان، خطوات الصّبي، الذي لم تكُنْ وُجهته بالبعيدة عن المَقهى، بالكاد بضع خُطوات.

دخل الصبي لمكتبةٍ، تشبِه - إلى حدّ ما - محل عزيز في صغرها، تحملُ اسم فلورنس.

لحق لامير بالصبي في المكتبة، ليَجدْها خاويةً إلاّ من تلك السيدة، وهي عاكفةُ على ترتيب جانب من الرّفوف الكثيرة، ليتقدّم إليها وليدها مُستسلِماً لنظراتها، التي بدأت بإلقاء عتابٍ انسلّ همسا إلى أُذنِ لامير:

- إهمالك يدعوني ألاّ أطلب منك شراء شيءٍ لي!

أجاب الصّبي، وهو يُنظرُ لـ لامير، كأنّه يستعْطِفُه:

- أعِدُك أمّي ألاّ أُكرّر هذا...

تدخّل لامير، مُستعيراً من سنواته التي قضاها، حكمة الولوج إلى أفئدة الفرنسيين المُتحضّرة:

- سيدتي! اعذري تدخّلي. فرؤيتي لولدك، والفنجان يسقطُ من يده، هي من دعتْني إلى الدّخول.

نظر لامير إلى الصّبي، مُتيقّناً من حديثه، ليُضيف بشيءٍ من الدُّعابة:

- وأنا لحديثه لَشاهد!

استغربت السيدة تدخّل الغريب:

- عفواً سيدي!... أشكرك، ولكن هل لي بخدْمتك؟

لم يجد لامير بما يُجيب، فالموقِفُ أحرجه، ليُجيب سريعاً، لفرط هذا الإحراج:

- أبْحثُ سيدتي، عن مُذكّراتٍ لشاعرٍ عاش في القرن 19م. سكن بهذه المنطقة. وأتساءل إنْ كان عندك ما تُعينينني به في البحث؟

أجابته مُشيرةً إلى جُموع الكُتب المُصْطفّة:

- إنّ الرّفوف التي تُقابلك، كُلّها أو مُعظمها لشُعراء القرن 19م (رفوفٌ مُتزاحمة في المكتبة الصّغيرة، بشكلٍ دائري، يتوسّطها مكتب السيدة. مكتبٌ كالعيون المُحمْلِقة، يُراقبُ كل شاردة وواردة بنظرةٍ واحدة).

أجابها آملاً في استغلال كلّ دقيقة في مكتبتها:

- لامارتين... هو من أبْحثُ عنه؟

حدّقتْ مليّاً في كتابٍ مُلقىً على أحد زوايا مكتبها، وهي تستمع إليه، لتستدير مُجيبةً:

- للأسف، لا يوجد - بالمكتبة - ما تبحَثُ عنه من مُذكّرات.

سكت لامير، وقد خاب ظنّه. وقبل أنْ يبوح بشيءٍ، استطردت السيدة، وهي تقتني الكتاب:

- هُناك مجموعةٌ من الكُتُب الأدبيّة، حُمِّلتْ للمكتبة منذ حين، ومن جُمْلتها هذا الكتاب.

واصلت السيدة حديثها، وهي تقِفُ مُشيرةً لـ لامير إلى كتابٍ، بالكاد فُتِحت دفّتاه:

"مُذكّراتُ الرّهبان والشّعراء • من 1830 إلى 1862 •". لم ير لامير على غلاف الكتاب شيئاً غير العُنوان، ليحْمِله، مُتسائلاً في نفسه:

- وأين مؤلّفُ الكتاب..؟

وقبل تكرار تمتمته، قاطعته صفّاراتُ شاحنةٍ، توقّفت خارج المكتبة، وهو بالكاد يقتربُ من عتبة بابها الدّاخلي. البابُ الذي لا يكاد يتسع إلاّ لشخصين من مثل هيكل لامير.

خرجت السيدةُ مُهرولةً، مُعتذرةً من لامير، مُشيرةً له بالتّنحي جانباً ليفسح لها الطّريق:

- عُذرا هلاّ سمحتْ؟

أجاب لامير بذات سُرعة مُرورها، وهو يستديرُ ليرى الشاحنة من نافذة المكتبة:

- تفضّلي.

ما كادت خُطاهما تلمسان الطّريق وأوّله رُخامُ البوّابة، حتى بدأت حبّات الثلج المُتناغمة تُداعب الأرضية. ليُوقظ هذا البساط السّاحري في نفس لامير إحساس الهدوء والدِّعة الذي يستفيق على لحن الصّبا ودياره. ديارُ لامير التي ودّعها، لَكَمْ كانت هي كذلك كثيرةُ الثلوج، رغم قِلّة شوارعها. لا زال يذكُرُ خُروجه من الغرفة الدافئة،

يسبِقُ سقوط الثّلج في فناء الدّار الكبيرة المُكتظة بالأعمام وأبناء الأعمام، والوالد ينادي عليه بالرّجوع.. لا زال يذكر، وهو يتمتّع بالتّزحلق أو شبه التّزحلُق، فما من حذاءِ يغطّي - حينها - قدميه إلاّ غِطاءٍ جِلْدي يحتفظُ به من صيّفه التّاسع.

ما كاد لامير يخطو خطوتين خارج مكتبة Florence حتى توقّفت الثلوج التي كانت كأنّها تسارعُ الزّمن. والسيدة تسبِقُه إلى الخارج، تُحيّي السّائق صاحب الصوت الجهوري، الذي ألقى إليها التّحية:

- صباح الخير سيدة Heina، ها هي الدّفعة الثّانية من اللّوحات المطلوبة. ومعها باقي الكُتب المعالجة، لقد استعادت نضارتها.

أخذ لامير كتابه العتيق، وقد أعطى 2£ مُقابله، فهو قديمٌ من بقايا الحريق الذي شبّ بالمحل في السّنة الفارطة.. وليس فيه من شيء مُغرٍ غير العنوان. سارع بخُطاه النّحيفة نحو الجامعة، عسى ينقلُ من الرّفقاء تحصيل الأيّام السّابقة، وقدماه تكادان تتجمّدان برداً. فقد توقّفت الثُلوج، واستبْدلتها أمواجُ الرياح الباردة، وكأنّها من ريح الشّمال المُتجمّدة.. هكذا يستشعر لامير والخُطُوات متواصلة..

ما كادت عباراته تتزاحمُ في ذهنه عن الشّمال وريحه، حتى تعثّرت قدماه بسبب نُتوء برز من الأرضية - على غير عادة طُرق فرنسا - ليُرمي من بين يديه المُتجمّدتين كتابه العتيق، لتنتشر على الطّريق وُريقاتٌ منه. وُريقاتٌ بدت لـ لامير، حين حدّق جيّداً فيها، مخّطوطةً غير مطبوعة، وكأنّها مُخلّفاتٌ من بقايا الزّمن الذي يَحِنّ إليه.

لم يُسعِفِ الوقت لامير ليَتَصفّح شيئاً مما سقط، فما إنْ حمل الكتاب بأوراقه المتناثرة حتى توقّفت الحافلة.

ها هي ساعةُ لامير الفضية، كلون قطعته اللّجينية، تشير إلى11 سا 15'. والنّاس - اليوم - على غير عادتهم يتزاحمون داخل الحافلة، رُبّما حالة الجوّ دعتْهُم لذلك، وهي ذاتها ما دعت لامير إلى أن يُصارعُ نيران بداخله، نيران مُطالعة ما بين يديه من مخطوط.

نظر لامير من نافذة الحافلة الدّافئة، وهي تسير بالخلق، نحو الخارج القارص البرد إلى خلقٍ مثلهم.. وإنْ كانوا قِلة. نظر إليهم، وفي كُلّ مرّة من التفاتاته تتغير أمامه الأشكال، ولكن بداخلها أرواحاً لا تتبدّل، مُردّداً:

- النّاس حقاً لآدم!؟..

فهذا يرتدي العباءة - في ديار الغُربة هذه - مُعتصِرةً في مِعطفٍ ونصف عمامة. وذاك بلون المِعْطف ذاته، تعْلوه طاقيةٌ إفرنجيّة النّعت... وإن تدلت من جانبيها

خصلتان مُحكمتاً الفتل تُزيّنان الرأس. أمّا تلك السيدة الحاملة كغيرها، لمطرية تَكبرها حجماً، فترتدي ثوباً أبيض، لم تتخل عنه حتى مع الجوّ الماطر، زادها نقاءً وجمالاً، ذكّرته بـ فارتي... إيهٍ على رحلته مع فارتي. هذه الرّحلة التي يخْتَزِنها كما يختزن بعض ذكريات الصبا المؤلم. حين اعتصر الألمُ أحْشاء والدته، ولم يجد - حينها - وهو يُبْصر الوالد بجانبه في ليالٍ كليالي البرد هذه. وهو لا يقوى أن يُخفّف من وجعها شيئاً. لم يألُ جهداً في أخذها للطّبيب... دائِمُ الصّمت هو - والده - إلاّ في تأنيبها.. إنّها الأعراف.

لا زال لامير يذكر، والألم يُهيمن عليه، كيف لا وذات المرض غيّب والدته بُعَيده بأشهر.

بحيرة الملائكة

15

وصلت الحافلة المُكتظة بالنّاس وبـ لامير، إلى وُجهته. لِيهبط إلى الرّصيف المبّلّل، رصيفٌ ما كاد يطئه حتى ابتل بمياهٍ أرسلتْها شاحنة غادرت لتوّها. لم يجد في ذاكرته وهو يلاحقها ببصره رُفقة غضبه إلاّ صورةً خلّفها وراءه في مكتبة "فلورنسا".

تركت الشّاحنة آثارها على هندامه الأنيق وحذائه اللاّمع، الذي أمسى مأوىً للمياه الضحلة. لم يجد لامير، وهو مبتل البذلة الأنيقة إلاّ مواصلة الطّريق لوِجهته.

دخل إلى الحرم الجامعي مُسرعاً، واختار وهو على هذه الحال الانزواء في مكتبتها، عسى يُبْعِدَ عنه الإحراج، ولا يراه أحد. وهكذا يُطالع ما بين يديه من صفحات الكتاب العتيق، وما في أحشائه من مخطوطات أو أشباه مخطوطات.

ما كاد لامير يدخل المكتبة، حتى التقى بـ نور، الذي كانت رؤيته أجمل هدية من السّماء، خصوصاً وهو على هذه الحال.

نظر نور لرفيقه - دون أناقته تلك، ليسبقه بالسّؤال، مُتناسياً إهداء التّحية المعهودة والمعقودة من الدّيار:

- ما الذي حلّ بك؟

أجاب لامير نور بامتعاض، سارداً عليه الشّريط منذ 11:15 سا إلى لقائهما، ليفاجئه سائلاً:

- ولكن.. ألا تُلْقي التحية أولاً.

ردّ نور، متسائلاً ثانية:

- قبل التّحية أرني هاتفك.

أذعن لامير لهذا الصديق غريب الأطوار، كيف لا وفي أعماقه فنانٌ نائم.

أمسك نور بالهاتف مُجدّداً السؤال:

- لا يبدو أنه معطوب. ما حلّ به، وأراه يزدادُ لمعاناً!؟

أخذ لامير بشدّةٍ هاتفه من بين أصابع نور وهو يقول:

- دعنا من هذا. فقد أخبرتك بما حدث... واقْتَرِب لنجْلِس ونُلْقي نظرةً على هذا الكتاب الذي اقتنيته لتوّي...

نظر نور لصديقه، الذي كلّمه بالأمس بصوتٍ غير الصوت الذي يسمعه اليوم، وهو يُسائل نفسه سرا بأُلْفةٍ يعرفها لامير جهراً:

- ألا يملّ هذا المعتوه من فكرة القراءة والمطالعة و...

استشعر لامير بإحساس صديقه، وهو يقول:

- هيّا، إليك هذه الوريقات، وابحث معي داخلها عن أيّ شيء تجده لأيّ اسم من هؤلاء.

وحمل لامير قلمه وهو يخُطّ الأسماء التي يعرفها والتي تُذكّره - دوماً - برحلته.

تساءل نور كعادته:

- لِمَ هذه الأسماء دون سواها؟ ولِمَ البحث عنها؟

سكت لامير، وهو يعرف أن الحديث عن هذا الموضوع لا يُجْدي مع نور نفعا، وما هو إلاّ مضيعةٌ للوقت؛ ليَرُدّ عليه مُنهيا السّؤال:

- إنّها جُزءٌ من رسالتي..

في أثناء حديث الصديقين ونقاشهما، مرّت بقُرب طاولِتهما مارغريت، زميلتهم المعروفة باسم "النّقابية"، لترمي بإعلانٍ إلى الطالبين.

حمل نور الإعلان ليَقْراه:

(تُنظّم جمعية "جسور الشرق والغرب"، بالتنسيق مع كلية الآداب معرضا للّوحات، لعارضين هواة من بعض البلدان العربية... وذلك بعد ظهر الغد الموافق لـ...).

لم يجد لامير، لاهتمامه بما في يديه، إلاّ أنْ يُعقّب على الإعلان، قائلاً لصديقه:

- لا يُمكنني ترك فيلم "هاري بوتر" في جزئه الأخير، مُتفرجا على لوَحات لا أعرف من صممّها!

تساءل نور مُستغرباً جواب لامير:

- لِمَ لا نذهب سوياً؟ فالجوّ - كما ترى - يدعو لصالة دافئة وإنْ وقفنا أمام لوحاتٍ!

أجاب لامير صديقه ببساطة اعتاداها:

- تزخر يداك - على الأقل - بموهْبة الرّسم، لذلك أنت في غنى عن مرافقتي لك. كما أنّ المعرض سيستمر بعدها لأيّام، أي أثناء العُطْلة..

وبدأ الأخذ والرّد بين الصديقين، وأخذ الحديث مجراه، ومارغريت تُراقبه، وتزدادُ تحديقاً فيهما، وتكاد تشك أنّها موجودة بين زميليها. حتى أيقظت لامير من شروده عنها، وأخرجته إلى عالم الحوار المُشترك، لتشير - وهي واقفةٌ دائماً - بأناملها الفرنسية إلى الثالث ديسمبر، وهي تقول:

- نحن في الثالث ديسمبر 2007 يا لامير، وليس ما خطّه حبرك.. 1852.

أخرج لامير تلك الوُريقة من كتابه العتيق، والتي لم يظهر منها إلاّ التّأريخ.

ودون أن يُجيبها، أعاد التّحديق إلى الوريقة، وكأنّه يُبصر بحرصٍ إلى دُرّة نادرة، لا يضاهيه إلاّ حرصه على قطعته اللّجينية، أو حرصه - رفقة أحد الرّفاق في الصّبا - على الذخيرة الذّهبية في بلدته البدوية (وادي الخوالي).

غادر لامير قاعة المُطالعة المُحاذية للمكتبة، والتي لم يحظ فيها بمكان، وبالكاد ألقى نظرة وهو يسمع أشباه أصوات خافتة، تحملُ في طيّاتها ذات ما استشعره مع السيدة "هيينا"، مُنبعثة من بعض طُلاّب القاعة:

-... مثل الكلاب هؤلاء الـ...

ليُضيف آخر:

-... لم يكثر في بلادنا إلاّ الخنازير..

وارتفعت مع الأحاديث المتسارعة قهقهاتٌ، دوّت كأنّها في عُلب المخامر اللّيلية.

تمنّى لامير لو أنّه لم يمر مُطلقاً، كي لا يتعكّر مزاجه، الذي اعتاد أصناف هذه الأحاديث والأصوات، ولكن أنْ تكون داخل القاعات وفي أسوار الجامعة....؟!

مشى تائهاً، في الطّرقات المُفتَرَشَةِ ماءً، مُعيدا إلى ذاكرته الصّور العديدة، المارّة عليه كالأطياف حيناً، وكالغيم الأسود أحايين أُخر، وهو يسائل النّفس مُجدّداً:

- ما هذه الرّومانسية التي عاش لأجلها الشّعراءُ؟... ما تلك الفروسية التي مات لأجلها الفرسان، وكرّمها الأُمراءُ؟.. أيّ أمراء، أيّ فرسان وأيّ شعراء؟

وبدأت أحاسيس لامير تتلبّد، كتلبّد السّحب القاتمة المائلة لسواد الليل. لتنتشر في داخله ثورة الكُفر بكلّ شعارات الإنصاف والإنسانية التي آمن بها وبنغْمتها الجميلة.

ولكنّه ما فتئ أن عاد لحاله الهادئ، وهو يُحدّث نفسه - التي تعوّدت سماع أنواع الشتائم لبني جلدته:

- .. لحظاتٌ.. وستمر!

وصل إلى بيته، شقته النّائمة في مضايق أحياء "شومبيري"، والتي اكتراها منذ سنتين، بُعَيد مجيئه بعامين، حينما تعرّف على القلّة القليلة ممن يُذكّره بديار الأهل. وكم هو السّؤال دائم الورود إليه، مثلما راود في الأعماق إنيليت ذات يوم، حينما باح بالثّورة الداخلية:

- أحقا كلّ النّاس لآدم؟

بأسئلة من أخوات هذه، استلقى لامير ومزيج التّعب والملل يُزاحمان، من حينٍ إلى حينٍ، عينيه. ناسيا تغيير ملابسه، التي كانت في الصّباح أنيقة...

وغفا، لتنام عيناه، والقلب بالحيرة والآتي مشغول.

بحيرة الملائكة

16

يـومٌ جديـد، مـا زالـت سُحُبه لـم تُغـادر شـومبيري بعـد. حمـل لامـير حافظتـه، المُختزنة لصفحاتٍ من عهدٍ بائدٍ، ناسياً ما اطّلع عليه بالأمس. مُتفقّداً هاتفه الأنيق، الذي شد نور لمعانه.

وها هي رسالة نصيّة منه تطفو على شاشة الهاتف وهي تقول:

(**سأراك، إنْ غيّرت رأيك، عند باب قاعة المعارض في 9 سا**).

انطلق لامير سريعاً، عساه يلحق بالنّقل، فلم يبق سوى نصف ساعة تقريباً على لقاء رفيقه، وقبل أنْ تُقفِلَ القاعةُ أبوابها - هكذا هم الفرنسيون دقّة كساعات جيرانهم.

تناسى التّعب الذي كبّله، آملا في استرداد الرّاحة مع دنو عُطلة الشتاء القسرية قبيل امتحاناتها، وراح مُمتطياً الحافلة التي فاجأته بتوّقفها، وعيونه مُحدّقة بمن فيها، والكلّ ينظرُ إليه بغير العين التي اعتادها، بدا لامير متسائلاً:

- ما هذه النّظرات؟ ما هذه البداية في يومٍ مُلبّدٍ كأحلامي؟!

تضـايق لامـير للشـعور الغريـب الـذي راوده ممّـا رأى. وتوقّـفَ قبـل الوصـول لمحطّته، ليسير باقي المسافة راجلاً.

واصل سيره، ومع كل خطوة يخطوها، يزدادُ قلبه ضيقاً، ويعتصرُ بطنه، تماماً كما كانت الحال حينما يدْخُل مُدرّس اللّغة الفرنسية في مدينته العربية، ليستعرض منْ حفِظَ أنشودة "الحرّية Liberté". والتي - رغم الخوف - أحبّها وما زال يُنشدُها.

وهكذا ما إن يتقدّمُ لامير خُطوة، إلاّ ويزداد معها خوفاً ووجلاً، كأن الخُطى ذاهبة به إلى غير هدى... لتتوقّف - فجأةً - بقربه شاحنةٌ، تأكّد حين التّحديق في صندوقها الكبير، أنّها شاحنة الكُتب واللّوحات ذاتها.

وقبل سؤال نفسه عمّا جاء بها، دوّى صوتٌ لا يُطاق، أسْقطَ لامير، الذي فقد الوعي لهُنيهةٍ من الزّمن، مع الكثير ممنْ حوله، ولم يشْعُر إلاّ ولوحة ترتطم بذراعيه المشدودتين إلى صدره.

بقى مسرح الحدث ثابتاً لا يتحرّك، وكأنّ لحظة الانفجار قلبت كل شيء.

نُقل الكثير - من هول الصدمة - إلى المستشفيات، ومن ضمنهم لامير، الذي لم يفهم شيئاً غير لوحةٍ مُغطاةٍ بقُرْبه، لتُبْصرها مُمرّضة، أخبرته للتّو:

- كادت تودي بك لولا أنّ يديك أبعدتاها (وأشارت إلى المسامير المدفونة فيها).

لم يستوعب لامير ما جرى، ولم يجد - كالعادة - إلاّ سؤال نفسه:

- ما الذي يجري من حولي؟

لم يكد يستفيق مجدداً من هول ما رأى وسمع، حتى سمع وقع أقدام تتسارع نحوه، وإذ بها ثُلّةٌ من الشّرطة، استوضحت هويّته على لسان قائدهم:

- سيد لامير آدم؟ هذا اسمك؟

أجاب لامير غير واعٍ:

- أجل سيدي.

جدّد عون الشرطة طرح الأسئلة المتتالية، تتبعها الإجابات، وكأنّه ينتظر من لامير استنطاق أعماقه للبوح بالكثير:

- بعد استشفائك، مضطرون لإيقافك. فالظّاهر أن الانفجار بفعل فاعل. وقد استهدف (وهو ينظر إلى من حوله) حافلة لنقْل المخطوطات بجانبها أُناس أبرياء.

سمع لامير كلمة "أبرياء" وكأنّها اتّهام له. وقبل أن يبوح لامير - من سريره - بأيّ شيء، أضاف العون:

- اتّضح، أيّها الشّاب، بعد التّحريات الأولية، أن مُيولك الدّينية تحتّم علينا استجوابك.. وهذا يؤثّر إلى حدّ ما على وضعيتك.. و..

تدخّل لامير مُدافعاً:

- سيدي، رُبّما أخطأت تحرّياتكم الشّخص وفي اتّهامي!

وجدّد التأكيد:

- الكل سيدي، ممن أعرفهم يشهدون على ذلك، ثمّ إنّني...

قبل مواصلة تبرئة نفسه من تلك الاتّهامات الأولية، قاطعه الشّرطي مُشيراً إلى أحد أعوانه:

- خُذِ اللّوحة.

وتوجّه لـ لامير بالحديث:

- أظنها من مُقتنيات الشاحنة؟! وقد وُجِدت بين يديك!

لمْ يُحرّك لامير ببنت شفا، ليَخْتِم الشّرطي تحرّيَهُ الأوّلي:

- ستبْقى على ذِمّة التّحقيق... حتى وأنت في المُستشفى.

في خِضم شيءٍ من حركة المارين من حول المُصابين بمن فيهم لامير. كلّف العون بدوره المُمرضة بحِفظ اللّوحة النّائمة لوحدها.

ما كادت أقدام الشرطة تُغادر لامير، حتى استيقظت في داخله الأسئلة من جديد:ما هذه الأحداث السيئة التي تُلاحقني؟ ولم يجِد - في هذه الآونة - إلاّ استذكار بكاء شاعره المُلْهم إنيترمال، حين استجدى الله داعياً أن يرفع عنه تلك الآلام.

وها هي البحيرة من جديد، تعود إلى لامير بصورة جديدة، وبِعَهْدٍ جديد.

بحيرة لامير هي - الآن - ملامِحُه. نعم، فذلك الشّرطي ربّما استحى - لبقاء شيء من اللياقة في داخله - أن يقول له:إنّ ملامحك (وليست التّحريات) من أوحت لنا بأنّك شريك في الجُرم المشهود.. التّحريات، هذه الكلمة التي عاود لامير ترديدها، مُجدّداً السّؤال:عن أيّ تحريات يتحدّثون... عن شُهود عيان؟ عن امرأة بالقُرب، تبيع الكُتب، عَرَفَتْني لتوّها؟ أم عن أولئك الطّلبة، الذين لا يمقتونني لشَخْصي البائس، بل لازدرائي هويةً وانتماءً.

بينما لامير على هذا الحال، وذات السّؤال، دخل عليه نور، مُنْدفعاً بالقول:

- عَلِمْتُ بما جرى، ولكن لم يُسْمَحْ لنا بالدّخول إلاّ في هذه الدّقائق.

واتّكأ على صديقه هامساً:

- بل لم يُسْمح لي أنا بالذّات... وأنت تدري، بعد التّدقيق في الهُوية..؟!

وجدّد السّؤال:

- كيف هي حالك الآن؟

تنهّد لامير مُجيباً صديقه، بنَظرةٍ انطلقت ببطء، جالت من الأسفل إلى الأعلى، تُعبر على ما يبدو على إصابته قائلاً:

- كما ترى... و

وبعفوية الشّباب قاطعه نور قبل أن يُكمل:

- الغريب أنّك العربي الوحيد المُصاب في الحادث!

استيقظت بعض أحْزان لامير، لتُجيب نور دون صدى:

- بل قُل أنني الوحيد المَوْضوعٍ تحت التّحقيق.

ليُعقّب نور، عساه يمحو بعض الحزن هذا:

- عن أيّ تحقيق؟ لا داعي لأيّ قلق، كلّها إجراءات... وأنت تعرف، فالظروف مؤخراً أصبحت مشحونة أكثر من ذي قبل...

- أعرف بالتأكيد.

وينهض، ليستلقي من جديد، مُبصراً اللّوحة:

- أرجو أن تحتفظ، يا نور، بهذه اللّوحة. حتى ساعة حاجتي لها.

أجاب نور كأنّه تفاجأ لطلب صديقه:

- ولكن؟!

قاطعه لامير من جديد:

- خُذها أرجوك. هي ما بقيت من ساحة الحادثة، وأراها ترجوني البقاء معها.

أعاد نور التّحديق في عيني صديقه قائلاً من جديد:

- لا تزد على نفسك إرهاقاً وأسئلةً أنت في غنى عنها.

- أنا - يا صديقي - مُتّهمٌ شئتُ أم أبيتُ بأخذها. لِمَ لا آخذها؟ والجُرمُ مُلْتصقٌ مُلْتصقٌ بي.

اضطرّ نور، لولائه لمحبّة لامير، أنْ يطاوعَ صديقه. ليقفز بالحديث إلى سرد ما وقع له في الصبيحة، قائلاً مُستذكراً:

- بالمناسبة.. منذ الصبيحة لم يكن للشّرطة شُغْلٌ إلاّ سؤال الزّملاء عنك... وكما تعرف (وهو يُبصر بعين ذائبة بالهزل والجدّ معاً) فالخبر السيء لا يأتي - مُطلقاً - بمفرده: فقد أخذت بإفادات من تعرف..

ليُبصر من جديد إلى لامير:

- عليك بالصّبر.

ما كاد نور يُكمل حديثه الممزوج بالرّفق والتّأنيب، حتى انتبه، رفقة لامير عبر النّافذة المكسو زجاجها بضباب أنفاسهم، إلى عصفور وثب، رفقة رفيقيه، على غُصن الشّجرة المُطلّة على المصابين، ليوقظ الطائر في نفس لامير أسى الشّعر من جديد:

ثوَتِ الأطيار بالغُصن النّدي وأحاديث الهوى في الموعد
شكت الأفنانَ أسرارَ الهوى فغدَت سرّاً سيمْحى في غد

كأمانينـــا ســـيفنى حُلمهـــا
أطيورَ العِشقِ؟ إنسي ما مضى
وتعــالَيْ نقتفــي فُلْــكَ السّــما
بـــترانيمَ سينســـي ســـحرُها
وأعيـدي العُمْـرَ ذاك المـُنْقَضي
وخُطـاه الباحثـاتُ عــن دعـة
أطيـــورا؟ نهجُــرُ الــدّار الــتي
ورمــتْ بالــدّفء قطـراً كالنّـدى
وتعالــت كالعنــانِ فـي السّــما
سـيجيبُ الـدّهرُ عـني هامسـا
أطيـــوراً رافقــي ريــح الصّــبا
لرُبى الأَشْـواق أُنسا في الضحـى
فــنرى الــذّكرى بصُــبْحٍ نــاعِم

وسـيبْقى الحُـبّ رسـماً في اليَـدِ
ودعِ الـــذّكرى ببـــابٍ موصـــد
لنُعيـــد الأُنـــس قبـــل المرْقـــد
نَغَـم الحـادي ليُمْسـي سـرمدي
لأرى عهـــد التّصـــابي المـــُبْعد
وسُـــكُونٍ إنطفـــا مـــن مولـــدي
أوَتِ الأفـراحَ في الكفـّ النـدي؟
فتَهـــادى للمِهـــاد الأمجـــد؟
فكَـوَتِ بالخُلْـدِ عـينَ الحُسّـد
بصـــدّى بـــحٍ لقلْـــبٍ مُجهَـــدِ
لِتَعـــودي نحـــو طيـــب المـــوْردِ
لأَصـــيل الـــذّكريات المـــُبْعدِ
ونـــرى الآتـــي بـــأحلى مشْـــهدِ

بحيرة الملائكة

17

مضت أيّامٌ قليلة، ولأمير بين طريق الشّفاء وطريق التساؤل الدّائم عن حالته، وإلى ما سيؤول إليه الأمر... لو كانت الأمور - كما قال نور - قبيل الألفية الجديدة، لكان الإجراء عادياً، ولكن الأمر في فرنسا - وفي سواها - مُختَلِفٌ أشدّ الاختلاف.

زادت حيرة لامير وهو دائمُ الحديث لنفسه:

- منْحتي الجامعية مُهدّدة - لسوء الحظ ـــ... ومتى؟.. في العام الأخير؟ ...كيف تُراني أتصرف إن طال الأمر؟

مع هذا الاستفهام، أُخْرِجَ لامير من المستشفى إلى مكتب التّحقيق بمدينة بُحيرته "شومبيري"، آخذاً، بكلّ إشفاق، تحت إبطه حافظته الصغيرة المملوءة شعراً ونثراً.

أُدخِلَ الفتى العربي إلى الغرفة، وملامحه ذاتها توحي بالشّرق حيناً وبالحُزن أحياناً. وفي كفّيه دفاتر علمٍ وأدب. وبين جفنيه صفَحات ريب وأسى. ليستقْبِلهُ عوْنُ شُرطة، مُعْتَدِلُ الطّول، به مَسْحةُ من رقّة وطفولة. في غُرفة لا يكاد يتجاوز طولها المترين، أو هكذا عمدوا لحالات الاستجواب هذه، وقبل أن يطلب "جوزيف" من لامير الجلوس، فوجئ بدُخول عونٍ آخر - يعرفه لامير ونور كذلك - وهو يُردّد:

- من فضلك"جوزيف". هذا (وهو يشير إلى لامير بعينين حادّتين) لي أنا!

- وهو كذلك يا ألان.

وكأن عبارة ألان الأخيرة، أبْعدت بمُجرّد البوح بها عن لامير، شطر الهدوء الذي لازمه حين استأنس لرؤية جوزيف. ليَعْلمَ أنّ المؤرقَ آتٍ.

ليبْدأه ألان دون انتظار خروج زميله:

- اجلس أيّها الوَقح!

كأن لامير لم يجد إلاّ الإنصات للحديث المتوالي:

- لا تستحقّون - أنْتُم العرب - إلاّ عِصي الـc. i. a.

ليتدخّل لامير مُجيباً كأنّ صبره انقضى:

- سيدي.. لي الحقّ بمُحامٍ قبل أيّ حديث؟؟

قطع العون السّؤال، بوابلٍ من السّباب، سائلاً:

- ألا تعْلم أيها البَدوي النّتن، أنّ مُحاميك فوق (وهو يُشير إلى السّماء).

قائلاً من جديد، وهو يعتصر متوتّراً:

- ألا تقولون إنّ ربّكم الواحدُ النّائمُ في مكة أو ميكي (مُستهزءاً)، كفيلٌ بحمايتكم من الأشرار..

أوليست هذه فتاوى أباكم الرّوحي؟؟

لمْ يَدْرِ لامير بما يرُد. كأنّه يجْهلُ كلّ شيء، إلاّ استيضاح الأمر من جديد غير واعٍ أن الأمر لم يَعُدْ كما يظن:

- سيدي، أنت مخطئ. أنا مُجرّد طالب وليست لي مُيُ..

قطعت صرخة العون حديث لامير، الذي كاد ينساه:

- ألَمْ أقلْ لك؟... تستحقّون - أيّها البَدوي - أكثر من غوانتنامو.

وجدّد السّؤال:

- لِمَ تركتُم دياركم، وحملتمْ الكُره والغلّ لديار أشبعَتْ جوعكم.. أيّها الإرهابي!؟

كُبّلت شفاهُ لامير وعَلِمَ أنّه لا جدوى إلاّ الصبر.

ليُرْمى في سجنه بين الأغلال.. حتى إشعارٍ آخر.

دخل ألان إلى المكتب ثانيةً برفقة فيليب، الحاملِ لملف يُغطّيه السّواد، نظر إليه لامير وحدّق في حامله. وقبل أيّ حديث، بادر فيليب زميله ألان بشيء من المُزاح - المُعتاد بين العونين -، ساخراً على لامير قائلاً:

- ما رأيك أيّها العربي المُتَفرنس في ابن عمّك (وهو يتصفّح الملف)... لامير، أليس كذلك؟

أجاب ألان بتهكمٍ يُخفي في داخله التّعالي:

- أُوه لا فأنا فرنسي مُتعرّب، والدي - بكل بساطة فرنسي ... قل:ابن خالي..

وبدأت القهقهات المُقتضبة المُتقطّعة تخرج من فيه ألان، ليُجدّد السّخرية مُقلّداً صوتَ عجوز، مُبْرزاً بكل ما أُوتي من إبداع التّجسيد، الإزدراء والاسترحام الماكر، هامساً لـ لامير:

- سوف أُدافع عن ابن خالي.. ولكن.. ما باليد حيلة.. ليس لي يا (لبلاد) إلاّ الحديث أُعينك به.

ونظر إليه فجأة، ليبتعد بعدها بهنيهة، وبصوّت عالٍ جدّد التّهديد لـ لامير:

- اجلس أيّها البدوي النتن؟!

ورنا ألان لزميله، وبدآ في حوارهما المُعتاد الآخر وكأن أرضية السّجن. أمست خشبة مسرح لتراجيدية لامير، الذي أمسى لهما مُستسلماً رغماً عنه.

وقف فيليب، هذا الباريسي الذي احتك بأبناء ضواحيها، قبل أن يُعاقبَ بالمجيء إلى هذه البلدة الوادعة، آخذا زمام الحديث نحو زميله، وعيناه الحادتان في صدر عيني لامير:

- لماذا جلبتم الإرهاب إلينا؟

تردّد ألان، كأنّه فِعلاً ذلك السّجين، لُيجيب (مؤدّياً دوره):

- عن أيّ إرهاب..؟

- ألَمْ تطردونا بحُجّة المُستعْمرين، بعدما بنينا وشيّدنا وأخْرجنا من باطن أرضكم الخيرات...

ليسكُت، فتتغير نبرته الهادئة إلى أُخرى مُختنقة:

- ها هي لكم الأرض والسّماء!.. ماذا فعلتم بها؟.. لم تُصدّروا لنا غير العُنْف والقتل.. أهذا جزاء ما فَعَلْنا؟!

- عن أيّ دمار؟.. وإنْ كان - حسب قولك - فهو ليس وليد اللّحظة. أنتم من سقيتم أرضه الخصبة.

بصوت هادئٍ - هذه المرّة - يُجيب فيليب:

- تتّهموننا حتى بذنوبكم؟!

- نعم. (وتَنْطَلِق معها ضِحْكَة كضحكة المومسات)... ألَمْ تُعذّبوا أمثال هذا المسكين (ليرنو إلى لامير المُمتلئ خوفا لم يكُ أبدا ليَتَوقعه).

ليُجيب فيليب والسّخرية - هذه المرّة - تكاد تلْتَصِق بالثّغر كالتصاق الرذاذ بالأرض المرتوية:

- أشباهُ هذا... هم من دعوا الإرهاب لأن يربو وينْمو..

صدّق لامير ما قيل أمامه، وكاد يتعاطف - فعلاً - مع كل كلمة صاغها ألان في سُخريته مع صديقه، لولا أنْ استيقظت قهقهات من الشّرطيّين ملأتْ المكتب صدى ووقعاً، ليُمسك ألان بـ لامير، ويسحبه إلى أوّل جدار، وهو يُردّد:

- أأَعْجبك الحديث؟! أجب... هل أعجبك دفاعي عنك.

وعاد بصوت صارمٍ حاد، أنسى لامير غلاف السّخرية المسرحي:

- بالرّغم من ذلك.. ستذوق.. ستذوق!؟

أُسقط لامير مرّة أخرى، كالكُتْلة المُحطّمة على أرضية السّجن الباردة، بل المتُجمّدة. وتناثرت - مع هاتفه - تلك الأوراق المدفونة في قلب ذلك الكتيب. ولم يستشعر إلاّ بوحدة لا طيفاً يُرافقه فيها غير حفنة الوريقات التي أمست تحمل أكثر من قيمة لديه.

هكذا بدأت يومياته.. وحدةٌ لا يعرف لأُفولها زمناً... وصُحْبة يأمل بقاءها بين الدّفاتر والأوراق.

ليلة لامير الأولى تقترب من الفناء، وبعد غذاء الجسم الملُقى إليه، والقضاء البيولوجي الذي يوشك في سجنه أن يُصبح عبئاً وإهانة في أغلال المهانة المُصاحبة لكل حركة.

بحيرة الملائكة

18

.. ما عزاؤه إلاّ صفحات المُذكّرات التي بدأ، بقراءة اللّيلة التي صادفها أثناء مرور مارغريت عليه رفقة لامير، إنّها الثالث ديسمبر 1852.

بدأ بقراءة الحكاية - وليس له إلاّ القراءة - علّه يتناسى أمر اعتقاله، فليس له في الحقيقة إلاّ مُذكّرات من بادوا. يتصفحها بادئا باللّيلة الأُولى، ذاتها المُدوّنة بأنامل "فارتي".

فها هي تبدأ التّدوين في صفحاتٍ لا تتشابه إلاّ في تكرار العنوان في أعلاها:"صفحاتٌ من قلب الكنيسة من خادمتها "فارتي".

وبدأ لامير بالقراءة:

[.. إنّه اليوم الذي عاد فيه الأمير العربي، الذي رافقتُه ورافقتُ عائلته، وها هو بعد عودته - اللّحظة - من البحيرة التي كنت لا أحسبها إلاّ لشاعرنا المُلْهم، وشاعري الرّوحي لامارتين].

ولم أع بعد ما الرّابط الذي جمعهما في مكانٍ واحد، والذي دعاه إلى الذّهاب إليها. ليعود إلينا إلى الكنيسة حاملاً بين كفّيه جلبابا، قال حارس الكنيسة الذي رافقه أنّه أعطاه لأحد الصيّادين حين فاجأته الأمطار... هكذا قال الحارس.

.. ولا أنسى حديث السيدة الفاضلة أمّ الأمير وهي تُجدّد العرفان، بصوتها الدّافئ:

- نشكرك مُجدّداً، ونعتذر لك، فالرّسائل بالكاد تجد لها طريقاً إليك!

ما كان منّي إلاّ إجابتها:

- لمَ الشّكر سيدتي، فها أنت الآن - كما أرجو ذلك دوماً - في رعايتي مثلما كنت كذلك في بلدك. رغم أنّها رعايةُ دار وأهل لا رعاية قيّدٍ وأسر].

تـذكّر لامـير وهـو يقـرأ هـذه الملمـات، أنّ الأسـر لا زمـن لـه ولا قـرار. ليعـود إلى صفحات التّاريخ مُجدّداً.

[أجابتني الأم:

- بـل أنـت مُسـتودع الـذّكريات الجميلـة. ولـيس بمقـدوري إلاّ تجديـد العرفـان، فذلك يُريحني.

لم أجد إلا إجابتها بالرّضا والقبول:

- شِيَمك، سيدتي، ليست بالجديدة عليّ، تماماً مثلك.

ولكنّها جدّدت لي السؤال مرّة أُخرى:

- هلاّ أخبرتني - أيتها الطّاهرة - عن الجديد؟!

لم أجدْ حقا ما أقول إلاّ:

- هل تُصدِّقيني إنْ قُلْت:الكلّ على ما يُرام! و...

قاطعتْني كأنّها لم تُصغِ لإجابتي، قارئةً بذلك دفاتر النّفس وحروف القلب:

- لا أتحـدّث إلاّ عـن جديـدك هنـا في الـدّيار، ومـا حوّلـك! فـلا حاجـة لي لأخبـارٍ أعرفُها منذ أسرنا الأوّل مع الأمير. فالصّراع أمسى سُنّة الحياة، وما أصبحت الدّعة إلاّ ضيفا ثقيل الظّل..

هكـذا كان جـواب السـيدة الفاضـلة. أما أنـا، وكـأنّي وجـدت الـنّفس الـتي عهـدتها تكتم الأحزان فضحت عشقي الدّفين، فقد بُحت بالقول:

- أمّاه - ودعيني أنا من يطلُب إذن الأُمومة - القَلْبُ مُحترِق. وأعي أنّك ملئى بنَفْحة الشّرق. تلك ذاتها نفحاتُ السيد المسيح حيث وُلد، والمليئة بالطُّهر.. ولكن هلاّ آويتِ خلجات نفسٍ غريبّة، تفتّحت - بعد حينٍ - لترى الحُب.

أجابتْني، وكم أثْلَجت القلب - كثلوج شومبيري - وأحرقت القلب:

- بُنيـتي، كمـا أوْدعتني في القلـب كـذلك، لـن أوقـظ شـيئاً في قلبـك. ولكـن مـا أقوله:دعي الأمور على سجيّتها. ولا تُخبري بما في القلب، لأنّه لن يفقه ما فيه إلاّ من فيه..].

توقّف لامير عن القراءة، مثلما توقّفت صفحة التّاريخ هذه. وانطلق بفكره إلى آتي الأيّام، بعدما تصفّح الذكريات، لِتُقاطع نداءات حارس السجن عليه طالبا منه لقاء أحد الزّوار.

جاء جوزيف ومن وراءه نور بخُطى هادئة حذرة، لينظر إلى لامير ثمّ إلى صديقه قائلاً:

- أرجو منك سيد لامير أن تتصرف بتعقّل، فهنا حُكم القانون ولا داعي لأن تنزعج.

ليخرج بعدها تاركاً الصديقين على راحتهما في الحديث، بعد أن قال لنور:

- تفضّل... خمسُ دقائق، رجاءً.

تبادلا الصديقان بالكاد جُمل الاطمئنان. ليخرج نور بعدها وراء جوزيف نحو الخارج، تاركاً لامير والأمل يحدوه أن تنتهي المشكلة هذه، مع تدبّر أمر المُحامي، عسى تنتهي محنة صديقه ويخرج من هذا الحبس الغريب والتّهمة الأغرب.

ليعود لامير، ثانيةً إلى مُذكّراته، ليبدأ بطيّ الصفحات، مُستخلصاً ما آلت إليه الأيام بعد رحلة الشُّعراء والأُمراء، التي ارتسمت في فؤاده روضا ونعماء. غير معتقدٍ أنْ يجد في إحدى صفحاتها ما يُخيف القلب الرّومانسي ويزيده وجعاً... فها هي الفاضلة تسرد بعد ليالٍ من مُغادرة المغاربة نحو ديار المشرق التّركية، بيوميّاتٍ مؤرّخة بـ [أواخر ديسمبر1852...]:

[بعد أيّامٍ من الحُمّى، والاستلقاء على فراش المرض، في حالةٍ لم أعهدها، تغيّرت الأمور، ومعها تغيّرت حال الأصدقاء والأهل.

فها هي رفقةُ الأمير رضا قد غادرت، ولم تترك بعدها إلاّ شيئاً من التّذكار عبر نسخةٍ من كتاب المُسلمين المُقدّس" القرآن".

كما رحل - في الأثناء ذاتها - الشّاعر المُلْهِم، ورحلت معه الذّكريات. ولكمْ أبكاني رحيله كأنّه لم يُودّعني. وما زاد وقع الحزن في القلب رحيل أو ضياع (لست أدري) ما تبقّى من أنفاسه، إنّها المُذكّرات التي اعتاد تسطير أحداثها كلّ يوم. مُذكّراتٌ أودعت الأيّام الجميلة، تلك التي حدّثني - ربّما - عن أشياء منها طوال السّنوات الأربع التي عرفته فيها وفي آحادها، وعن شطر أشعاره التي كان الأمير العربي مُلْهِمه فيها، إنّها

نفحات إنيترمال الشّرقية... لقد اختفت تلك الصّفحات من رُفوف مكتبته، ذلك ما حدّثني به ولد إنيستاد، عامل الشّاعر ورفيقه، حين قال والدّمع ينساب أسى من عينيه، مُستذْكرا في أعماقه، مع الشّاعر، والده الرّاحل:

- أُختاه، لقد ترك لك مع هذا الكتاب Poèmes Arabes مُغلّفاً مُغلقاً بإحكام، وأوصاني مُلحاً أشدّ الإلحاح بحفظ ما فيها من مُذكّرات - هكذا قال - عند الأخت "فارتي"، حتى ساعة عودته..

ولكن أضاف الخّادمُ مُتْعباً:

- بُعيد مُغادرة من تعرفين منْ ضيوف..

وسكت الشّاب لهنيهة مُجدّداً الحديث:

- رَحلتْ مع رحيلهم ما أحفظه لك..

فسألته حينها، كأنّي أُساءل نفسي:

- ومن يا ترى أخذها؟ وما غاية أخْذِها؟ (وأجبته ساخرة بحق) وما ذاك الكنز الملفوف في مُغلّفها حتى يُؤخذ؟

وقبل استنطاق حيرتي، أثناء رجوعي مُكبّلة بالإرهاق والتّعب، تلاشت آثار تلك الحيرة، بعد أن جاءني رجُلٌ بثوب الجُنديّة الصارم، مُعرّفاً باسمه على عتبة الكنيسة، التي تكاد تخلو أرجاءها إلاّ من فتاتين تحملان دلاء الماء، قائلاً:

- اسمي بيرنار أُختاه.

بعد أن أجبته بهزّ رأسي مُرحبةً، واصل حديثه كأنّه يعرفني:

- اسمحِ لي أُختاه، فقبل أنْ أُكفّر عمّا اقترفته. اعتذر منك عن خيبتي في حفظ شيءٍ - أخاله ثميناً - من الضّياع.

أجبته ساعتها مستفهمةً، والحيرة تزداد نيرانها اضطراباً:

- عمّا تتحدّث أيّها الشّاب؟

- لقد تصفّحت - صدفةً - أوراقاً كانت بيد أحد مرافقينا مع الأمير العربي قبيل رحيله. ظننت الأوراق وهي منتشرةٌ أمامي لهذا المُرافق، غير أني، وبمُجرّد رؤية عنوانها.. علمتُ أنّها أُخذت من صاحبها..

وجدّتني استفهم حديثه:

- هل لي سيدي أنْ أعرف ما الأمر الذي يتعلّقُ بي، في حديثك هذا؟

ليُجيبني غير عابئٍ بردّة فعلي:

- ألست أُختاه:الرّاهبة "فارتي دو لاكروا"؟

وأعاد السّؤال برأسه مرّةً أخرى، كأنّه يقول:أليس كذلك

أمّا أنا، فقد بقيت واقفةً دون أنْ أُجيبه. وكيف ذلك؟ وهو بدوره لم يُجدّده، واكتفى بالقول قبل أنْ يُغادر:

- إن اسمك أُختاه ما حملني على القدوم، بعد أن رأيته مُدوّنا كعُنوان للصّفحات المُغلّفة بـ:*** إليها.. إلى فارتي ***

ليُجدّد آسفاً:

- لم أستطع - لجهلي لسوء الحظ - أن أحفظها من الضياع، وآثرت أنْ أخبرك بالأمر، قد يُعين في البحث عمّا فُقد.

ساءلت نفسي غير مصغية إلى استرسال حديثه:

- كيف لأحدٍ من رفقة الأمير يطمع في وريقات، تاركاً ما هو أهم وأغلى وأثمن.. وريقات قد لا يعرف كنهها!؟..

وقبل أن أسبح في سؤال نفسي مُجدّداً، أجابني الجندي وقد قطع حديثه المتواصل ذاك:

- إنّ من أخذ صفحات الشّاعر لامارتين..

(وكم شعرت بحرارة الخجل من سماع هذا الاسم، على غير ما اعتدت في ثلاثين عاماً)، لكأنّ الجنديّ عرف خوالج نفسي. وتأكدتُ أنّه اطّلع على كلّ أحرف الرّسائل.. قبل أن يقول:

- هو ذاته أُختاه، دون ريب، من أخذ نسخة الإنجيل المُهداة إلى الأمير من راهب برّ الجزائر، الذي كانت رسائله، على ما قيل لي، تتواتر إلى الأمير.

أجبته:

- وكيف عرفت؟

- هو من أخبرني

- الأمير أم...؟

وكأنّ "أم" هذه أربكت الجُنديّ، ليَخوض في حديثه كأنّ شكّي أمسى شيئاً عابراً:

- بل الأمير من أخبرني.. وقد قال - أختاه - بالحرف مُوجّهاً الحديث إلى إنيليت الذي لم يفارقنا قط:

- أتعرفان؟... أقبح ما في الدّنيا أن يأخذ المرء ما لا يملك، ليُعطيَهُ لمن لا يستحق..].

قبل أن يقرأ لامير آخر سطر ممّا تركت الأخت "فارتي"، فاجأهُ حارس الزنزانة، التي أمست كذلك، بفتحها، ليَدْخُل عليه آلان، مُبْصراً ما تُخفيه يداهُ الباردتان من أوراق دفّأتْ فؤاده، دون أنْ تُدفِّئ أجزاء جسمه، الذي يزدادُ استسلاماً للمرض، مُخاطباً إيّاه:

- تأكّد (وهو يهزّ رأسه متعالياً) أنّك لن تخرج أيّها البدوي..

أجاب لامير سائلاً، والكلمات، للفح البرد، ما عادت قادرة على الخروج:

- أوَلست عربيّاً مثلي، أما يسري في دمك شيءٌ من المروءة؟

- أنا فرنسي قبل كلّ شيء. ولولا أمثالك، لما وقع الذي وقع في فرنسا وفي غير فرنسا. ما كُنّا لنسمع بهذه التّفجيرات قبلاً..

- تعرف، مثلما أعرف، أنّنا بُراء. وما هذا إلاّ إحياءٌ لبراثن الصّراع القديم.

- الصراعُ ليس قديماً، ونواته أنّكم نقلتم الجّهل الساري في أزقّتكم وفي عاداتٍ ورثتموها - أذقتُم والدتي منها الأمرّين - إلى مجتمع مُتحضّر!

- أيّ تحضّر؟ أترى ما فعَلتْه فرنسا، وما تفعله أوروبا بالعرب وأمثال العرب تحضّراً؟

سكت لامير، وقد استذكر أولئك الرجال لامارتين والأمير وسواهما قائلاً:

- لو أخذت أوروبا وفرنسا بنُصح هؤلاء، لما جاءك هذا "البدويّ" على حدّ قولك، وما نُقِلت - لزعمك - موروثات كانت قابعةً في الصدور، ليُسجن كلّ من يعتقد بها على يد أمثالك.

ما إنْ سمع آلان كلمة أمثالك، حتى انفجر كالبُركان غيضاً، مُنهياً الحوار الذي كان هادئاً منذ حين، بلفظٍ كان بدايةً لعقاب لامير:

- أمثالي، أيّها الحُثالة، أفضل منك وممّن أنجبك..

وحمل كفّه التي تكاد تكبر كل ذراعه، ضارباً بها أعلى وجه لامير، مُردّداً:

- هذه اليد أطهَر من يديك المليئتين نجاسة!

ترنّح لامير من شدّة الضربة وفجأتها، ولكنّه ما لبث أن وقف رغم نحوله، كأنّه وجد الفرصة، رغم مرارتها، سانِحةً ليُشفي غليله من ضربة اختزلت كأس صبره وشطر معاناته في هذا السجن الغريب. لينقضّ على ابن عمّه آلان، أو هكذا نعت الفرنسي نفسه هازئاً.

ولم يتركه بمزيج الرّكل والضرب الهستيري إلاّ وصُراخه يتعالى، والدّماء تقطر من كلّ جهة من الوجه والرّقبة، وما لبث أن فُتحت أبواب جهنّم على لامير، الذي لم يعرف سرّ قوّته، حينما فتح أعوان الشّرطة باب السّجن مُجيبين صُراخ استغاثة سيدهم.

لتبدأ بعد حينٍ أصنافُ التعذيب، التي كانت لكمة لامير الأولى شرارتها.

بحيرة الملائكة

19

بعد الـذي أصبح عليـه لامـير، وبعـد أنْ تغـيّرت ملامحـه ومـا عـاد يُعْـرَفُ لـه شـكلٌ مـن شـدّة التّعـذيب. اسـتلقى بقربـه آلان يحمـل تلـك الصّـفحات الـتي تنـاثرت علـى الأرض الرّطبـة البـاردة، الـتي اختلطـت بدمائـه، بعـد أن عافتهـا قطراتٌ من دماء آلان التي انتشرت في الحائط تشهدُ على جُرْمِ لامير هذا.

وبـدأ آلان يـتهكّمُ قارئـاً عليـه، وهـو يُحـرّك بأناملـه وريقـات المـُذكّرات تلـك، فقـراتٍ منهـا بصـوتٍ عـالٍ يُسـمِع الحُـرّاس والجُـدران: "سـارت أرواح الشّـرق نحـو وُجهتهـا وتركتنـا. كأنّهـا تُـذكّرنا أنّ المنبـع هنـاك، هنـاك في المشـرق بـين بيـت لحـم والنّاصرة... وسواهما".

لينظر من جديد، بعينٍ دامية خلّفتها لكماتُ لامير الفوضوية عليه، قائلاً:

- سـأكون أمامـك كـلّ ليلـة.. لتُعلّمـني - كمـا قلـت - وأمثـالي التّـاريخ، وذكرياته، (وأمسك بالمذكّرات مُجدّداً) أوَليست هذه ذكريات؟

وأضـاف هامسـاً إليـه، سـاخراً منـه بصـوتٍ حَنِـقٍ حـادٍ، مشـدودٍ كالعضلات:

- ستسمِعُني وتُمتِّعُني حديثاً.. وكلّ ليلة من أوراقك الغبية هذه.

ليقفَ من جديد خاتماً حديثه:

- وسـأُمتّعك مثلمـا لـم تتمتّـع في حياتـك (وأشـار إلـى نـاظره المـُصاب) وبذات ما علّمتني إيّاه!؟

بـدأت هكـذا ليـالي لامـير،لم يَخْلَـدْ في سـاعاتها للرّاحـة أبـداً، إلاّ تلـك الأثنـاء، فـترة غيـابِ سـجّانه. فـترة أهـداهُ المـرض إيّاهـا... وإنْ لـم تكـدْ تُحْسَـبُ في

دفاتر راحته، فما هي إلاّ ليالٍ معْدودة ملأها بـرْدُ فرنسا القـارص. ولـم يبـق لامـير أثناءها إلاّ مع دِفء مُذكّراتِ فارتي.

هـاهو لامـير يقُـصّ لسجّانه - مُستسلِماً لهستيريا سجّانه - كـلّ سـطرٍ يفْهَمُـه وكـلّ حـرْفٍ يقـرأه. وكلّمـا يُصـغي السّـجان ويُبـدي مُتْعَتـه، إلاّ وتـزدادُ مـع ذلـك سـطوته، ولهيـب الكُـره ينبعِـثْ، وتبـدأُ مـع نهايـة كـلّ شـطرٍ مـن مُـذكّراتِ فـارتي، وتنطلق مُقدّمات التّنكيل بـ لامير... وهكذا الحال، ليلةً بعد ليلة.

لـم تبْـق لــ لامـير إلاّ دعواتـه.. ومـع الـدّعَوات والتـساؤلات، أتـتْ مُفاجـأةٌ سـارّة، زيـارَةُ رفيقـه مـرّة أُخـرى. وإنْ استـشعر لامـير أنّهـا زيـارَةُ المـُحْتَضِرْ. لقـد أتـى نـور وكأنّـه اسـتجاب لصـدى زميلـه، يعِـده بجلْـبِ مُحـامٍ، وإنْهـاء مـا تـراهُ عينـاه مـن عذابٍ وقَهر.

لـم يُطِـقْ نـور مـا يـرى، فقـد وصـل العـذاب - وهـو يـرى ملامـح لامـير - برفيقـه النّحيـف إلى حـدٍّ لا يُطـاق. وهـا هـو يُبْـدي تَـذمُّرَه لكـلّ مـنْ في المكتـب، مُسائلاً وقد وُلد الغضب في أحْشاء إدراكه:

- هلْ هذه فرنسا؟...

وأضاف كأنّه يُذكّرهم:

- إنْ قانونهـا لا يسْـمَح لكـم - وأنْـتُم حُماتـه - بإهانـة هـذا الـبريء... كُـلّ هـذا لأنّه وقفَ بقرب حافلةٍ انفجرت، وكاد أنْ يكُون - هو ذاته - من ضحاياها.

وبـدأ نـور يبـوحُ بثـورة مـن داخلـه، إلى أنْ أسْـكَتهُ أعـوانُ الشّـرطة بعـد نقـاشٍ عقـيم معـه. ليَجِـد نفسـه أخـيراً خـارج مكتـبهم. لتأخُـذه الأقْـدام إلى مكتـب المـُحامي. يظُـنّ نـور أنّـه يسـتطيع فِعْـلَ شـيءٍ لصـديقه، رُبّمـا! فـ "فينـاس" مـن أصدقاء مارغريت ونور، ولَهُما معرِفةٌ سابقة به.

ترجّـل نـور بخُطـى وحيـدة، علـى أمـل أنْ تَجعَـل الصـدّاقة، في هـذه الأيّام القاسية، من نسماتها سبيلاً يسلُكه المرء في بحر الغُموض هذا.

مـع الصّـباح البـاكر يسـتأذِنْ المـُحامي الشّـاب في الـدّخول، برفقـة فيليـب، ليَرى مُوَكّله، وبسُرعة المُحامين يسأل عن لامير:

- سـيدي، إنّ مُوكّلي "لأمـير آدم" هُنـا مُنـذ أيّـام عـدّة، ولـم يسـتفد مـن حقّـه القانوني في الدّفاع.. تُرى لأيّ سبب؟

- سـيدي المـُحامي، أنـت أدرى أنّ تُهـمَ أمثـال هـؤلاء لـم تُصـبح مسـألة قانونية، إنّها مسألة أمن قومي و..

- ما دخل هذا وذاك؟ الحقّ في الدّفاع من حقّ أيّ إنسان..

- عن أيّ إنسانٍ تتحدّثْ؟ هؤلاء هم نواة لخلايا إجرامية، تنشط - في خفاء - ودن هوية ظاهرة في هذه الدّيار التي تؤويهم!

- سيدي، لا أودّ الدّخول معك في جدال. الرّجاء السماح لي برواية لامير وتفقد حالته.

- صدّقني التّعاطف معه وأمثالهم، سيؤدّي بنا إلى تشجيعهم على القتل... ربّما بقتل أحد أفراد أُسرتك، هذا إنْ لم تُصبِح سيدي المُحامي من ضحاياهم؟!

قبل أن ينطق المـُحامي من جديد، يدخل آلان غير مُستغرب لوجه الشّاب "فيناس"، فهو يعرف روح المـُحاماة السّارية فيه، وقبل أن يمد إليه يده بالتّحية سأله:

- من تُرى أخبرك؟ ليست هذه العدالة التي تنشدها..؟؟

نظر "فيناس" إلى آلان بشيءٍ من اللامبالاة، ودون أي همس أو حديث جدّد العون استغرابه:

... - هل تُدافع عن جذوة العِداء هذه؟!

- أرجوك، لا داعي للتّجريح!

-لم تُجِبْني، هل أستطيعُ أنْ أعرف:هل لك معرفة سابقة بهذا الشّخص؟

- هل هو تحقيق معي؟

- لا، لا... ولكن أنت أدرى. أمْ نشترك في مُحاربة من نشتبه بهم فالثّمن.. أنت أدرى به.

استغرب المُحامي ما يدور حوله قائلاً:

- منْ نشتبه بهم؟

ليُجدّد:

- وإنْ كان الأمر كذلك! فلا يهُمّك من أخبرني، وتدري لأن الأمر سوف لن يطول أخفاه

ليعود بشيء من التأكيد، كأنّه يتحدى آلان:

- وإنْ لم يخبرني صديقه (مشيراً برأسه) نعم، فسيخبرني من يعرفك!

احتفظت ذاكرة آلان بزميل لامير، كأنّه رغب في توسعة رقعة زبائن سجنه، وحُجّته بالتأكيد غير واهيةٍ؛ مُكافحة الإرهاب والجريمة! هذه الأيقونة

التي برزت جذورها من الشّرق، ليلْتهم المغرب، وتطفو نحو الجنوب، فالشّمال الأوربيين... والأكيد حقاً صوتها العربي المُجيب لصداها الإسلامي.

لم يدم الحوار بين رجال الشرطة والمُحامي "فيناس" طويلاً، بعد أن سُمِح له برؤية موكّله لامير، وقد غمرته الدّهشة الشّديدة وهو يرى بقايا وجهٍ، كبّله الحُزن والخوف والأسى، وبه شيء كبير من الإهانة. فلم يجد - لألا يخدش نفسيته المُتعبة أصلاً - إلاّ القول:

- سينْتهي كلّ شيء... فليس لديك أيّ سجل.

ليُضيف مُشجّعاً إيّاه:

- وأُكبر فيك هذا الصّبر!

أخفى لامير، لطبيعته الهادئة، بُركاناً من تنهدات الأسى، وهو يكتم أحزانه، مُجيباً باقتضاب:

- سنرى!

افترق الجمعُ ممّن ضمّهم المكتب المُزدان بوثائق الشّرطة، وشعاراتها. ولم يبق - في سجنه - إلاّ لامير وحيداً، وليس في خاطره إلاّ سؤالٌ أضحى رفيقه:

- إلى متى؟

عاد المُحامي إلى عمله ومكتبه، وفي طريق عودته، عرّج على نور ولكنّه لم يجده. فلم يجد عناءً في السّؤال عنه في الجامعة، حيث أوصله حين حدّثه - رُفقة مارغريت - عن زميلهما لامير.

ها هي مارغريت تستطْلِع الأمر حين شاهدت "فيناس" :

- تحية طيّبة سيدي المُحامي!... كيف هي الأحوال؟

- أُريدُ التّحدّث إلى نور، لأنني لم أجِده في مقرّ سكناه!

- لقد غادر للتّو. ورُبّما هو في الطّريق إلى هُناك...

لِتستوْضح من المُحامي من جديد:

- ولكن هل من جديد عن لامير؟!

- وضعيته النّفسية والجسدية صعبة. وإنْ كان من الوُجْهة القانونية حبْسٌ مؤقت، واتّهامٌ ظرفي..

سكت المُحامي مع هذه الأحرف، وقبل أن يغادر باحثاً عن نور، سأل مارغريت:

- هل لديك رقم زميلك؟

لم تقُلْ مارغريت شيئاً، قبل أنْ تُعطيه هاتِفها مُعقّبةً:

-تفضّل سيدي، ستجِد اسمه!.. فمن العادة أحتفظ بأرقام كل زُملاء الفوج.

- شكرا... وعُذراً على إزعاجك!

بدأ المـُحامي بالاتّصال بـ نور، وصورة رفيقه المـُنْهك القوى لا تزال عالقةً في ذهنه، ومع انتظار صوت نور، يُسائلُ نفسه:

- ما ذنب هذا الطّالب المسكين؟!

ليَرُدّ نور على الهاتف:

- ألو. أهلا مارغريت!

- عفوا. أنا المـُحامي "فيناس" سيد نور، أردتُ فقط أن أُخبرك بأنني رأيت صديقك اليوم. وكل ما أرجوه منك - الآن - أن تكون حذِراً إنْ صادف أن استدعتك الشّرطة... هاتفتك لأضعك في الصورة فحسب... ورغم كل شيء لا داعي لأيّ قلق.

أنهى "فيناس" مكالمته، بعدما أسف في طمأنة نور.

بدأت - بعْدها - هواجِسُ نور واستيقظت، كما استيقظت عند نور في يومٍ خلى، وبدأ يُسائلُ نفسه:

- ما هذه الأحداثُ المُتوالية؟

وجدّد السّؤال، كأنّ الخوف وجد طريقاً إلى داخله:

- وما دخْلي أنا في شيءٍ يكادُ يكون - في الأصل - مُبْهماً؟

ليزداد قلقه مع أسئلته:

- ... ولكن. هل تُرى؟... رُبّما... نعم إنّها اللّوحة. آهٍ ستأتي بمشاكلها، رُبّما أحدهم أخبر الشّرطة عن سرقَتِها... أو؟.. عليّ ألاّ أتْركها عندي!

بحيرة الملائكة

20

هذه اللّوحة التي أسرت روان، قبل أنْ ترحل - بعد خِدمة الأمير وأهله - إلى ديار والدها الذي لا تعرفه، وتنتقل بعد حياة يائسة لم تُرض طموحها النّهِم.. بين فرنسا والدنمارك.

إنّها تنتقلُ بجسدِها، أمّا روحها فقد تلاشت. فنت روان إلاّ من الجسد، الذي يزدادُ امتلاءً وإغراءً. لكن أعماقها ودواخلها دائمةُ التّكرار:

- لقد يئست من إغوائه وإغرائه... لماذا؟... لماذا لم يأخُذني معه ولو...

لقد تاهت في سماء أوروبا. هذه السّمراء، التي فُتِنَتِ بالأمير. لقد فُتِنَتْ به حتى أنّها رَشت شِبه الزّوج هذا؛ زوجها الذي أمسى سائق الأمير، وهو يشدّ الرّحال بالعودة - بحُليٍ ذهبيّةٍ يتوسّطها هلالٌ ونجمة، كي يُحقّقُ لها ما ترغب...

فمنذ اختاره القدر زوجاً لها، وهي تُغريه بكل شيء إلاّ الجسد الملفوف بشذرات الرّوح. فهو عنّين،سيءُ الطّباع جشع، وها هي الحُليّ من بقايا والدتها الحبشية، ببريقها أغرته، بعدما أوصته بذات حديثها المُغري الفتّان، الذي كبَحَتْه 'خُلوةُ العُبّاد':

- إليك منّي هذه القطعةُ الذّهبية (وهي تُمسِكُ بالهلال المُلتفّ حول النّجمة)، وحين عودتك سأُعطيك ما بقي منها (وبضحكة إغراء واصلت حديثها)... والتي كما تراها تكاد تفوق رأسك الضخم وزناً.

- روان! إنّ الشيخ البدوي، أكثر فطنة من كثيرين..

قالت روان في نفسها "أعرفُ نباهته أكثر منك"، قبل أن تُجيبه:

- لا تقلق، فمُخاطرتك لي محسوبة. وما عليك سوى استغلال أوقات صلاته، واقتناء دفتر مُذكّراته الصغير، وقد رأيته ملفوفاً في حقيبة الإنجيل المهدي إليه..

سكتت روان، وهي تُفكّر في رحلةٍ قادت أُمّها من الجنوب إلى الشّمال. لتقودها هي - ذاتها - من جنوب أوروبا إلى شمالها، وذات الخاطر يُصاحبها ويُحيطُ بخلدها. إنّها تودّ الانتقام ممّن هجرها، وهجر أشواقها... ولكنها تعي - في أعماقها - أنّه ما هو إلاّ

انتقام من نفسها. وها هي تُريد محو ما خلّفه الأمير - بخطّ يده - بحبرِ أيّامه في سجنه بـ أمبواز. إنّها تُفكّر في طمس أحبّ ما يملك، ما خطّته أنامله في ديار أوروبا، مثلما طمس - رُبّما - رسّام الشمال مسحة الحياء الجنوبية، وخَدَشها عبر لوحته تلك والمحفوظة في مدينة "آيسبيارغ" الدنمركية السّاحلية. والنّائمة الآن بين أركان غُرفة نور المجاورة لغرفة لامير، والذي قرّر التّخلُص منها... ولكن كيف؟

ما زال نور كذلك بين الجدران التي تؤويه، حتى خطرت - كلمح البصر - بباله أن يتصل بـ مارغريت.

وها هو يُسارع بحمل هاتفه، كما تتسارع نبضات قلبه. بذات النّبضات، تواصلت رنّات الهاتف، لتحمل مارغريت هاتفها من جديد، وترد عليه. بعد أنْ أخذت الخطوات الأولى المحامي "فيناس" للمُغادرة.

- أهلا نور.. هل من جديد؟

- عليّ أن أراكِ الساعة مارغريت رجاءً!

- لماذا كلّ هذه العجلة؟!

- الأمر مُهم بالنسبة لي، وسأُخبرك به، حين نلْتقي.

- حسناً.

أغلقت مارغريت الهاتف، وتابعت سيرها الهادئ، بخُطىً أثْقلها السّؤال:

- ما الأمر يا تُرى؟

لتَتْرُك تساؤلاتها تسبحُ في حيّز الفضاء، مثلما هي عند نور.

نور، الذي ما إنْ أنْهى المكالمة، حتى بدأت هواجسه تزداد تحليقاً بين أركان فكره المُتْعَبْ. يبدو أنّه سيتناسى الدّراسة وجِدّ الدراسة ومِنْحتها وأجواءها، تماماً مثلما هو حال لامير، الذي لا زالت آلامه تُرافق "آلان" كلّ ليلة، مُرغماً على سرد عليه ما بين يديه من أحاديث الرّاهبة "فارتي". وها هي ذي تحكي على لسان لامير، المُوجعِ ألما من هول ما عاناه من العُنف المُسلّط عليه والبرد المُتراكم حوله، مُكمّلةً حديثها:

[... عاودّتُ سؤال المُجنّد الباريسي، واليأسُ يُزاحِمُ أملي:

- أيّها الشّاب، أترى من وسيلة لاسترجاع الأوراق؟

أجاب باقتضاب:

- لا أظن أُختاه. لأنّه لم يبق سواي هنا...

فلم أجد إلاّ العودة لنَفسي أسائلها:

- من يا تُرى أخذ مُذكّرات إنيترمال، وهرب بالشّوق الذي وُلِد لقراءة همسه... تُراها الخُصوم السياسية؟! من يدري..

ما كدتُ أفرغُ من حديث النّفس، حتى أجابني بيرنار، دون أنْ يُصغي لما في أعماقي، وبذات الهدوء قال:

- أُختاهُ الفاضلة، ما أعرفه حقاً - وقد أخبرتك - أنْ تلك المخطوطات كانت لهُنيهة من الزّمن بيد إنيليت مُرافق الأمير ومترجمه، والذي لم يُخف امتعاضه من طلب سائق العربة بأخذ مخطوطات الأمير، ليضعها مع الزّاد الباقي، والمحفوظ للأمير ورفاقه، قائلاً:

- كيف بالأمير يحفظ أغراضه بما فيها بيد أُميٍّ كهذا؟

وفاتنا يُجدّد بيرنار أنّ الأمّي الجاهل، لا يحفظ المخطوطات فحسب.

ليسكُت المُجنّد والاستغراب يُكبّله. أمّا أنا فقد كانت فجأتي للأخبار كبيرة، ولكنّها بالشّخوص التي ذكرها المُجنّد أكبر. فأنا لا أعرف إلاّ المترجم حسن الذي رافقنا من بر الجزائر. ولم أجد إلاّ سؤاله:

- من إنيليت؟ ومن هذا السّائق؟

- لا أعرف عن السّائق إلاّ أنّه زوج خادمة عائلة الأمير روان. وأنا - أُختاهُ - لم أحظ برفقة الأمير إلاّ لأشهرٍ قليلة، بالكاد عرفت أثناءها إنيليت. فهو من القادمين من الجزائر، ولا أعرف عن انتمائه سوى أنّه يهودي الدّيانة، وله اطّلاع كبير باللُّغات الشرقية، ويحظى بمكانةٍ عند الأمير... كيف لا وهو مترجمه.

جاوبته وجهلي بالشّخوص يُلاحقني، وذات السؤال يُراودني:

- أتظنّ أن هذا الذي كانت له مثل هذه الحظوة، وهذه الدّرجة من ثقة الأمير، وهذا الاهتمام باللّغات، ممّن يطمعون في...؟؟؟

- لا أدري أُختاه... ولا أعتقِد ذلك...

سكت المُجنّد]

وسكت معه لامير، الذي أمسى جسداً بلا روح، وجثّة هامدة، حينما تركه آلان ليلةً أخرى تحت الآلام، وإذ بالعقاب هو الرّفيق الدّائم له. وما عادت رغبته إلا في انتظار حديث جميل، وأنيسٍ يُذهبُ عنه وحشة السجن. كانتظار نور لـ مارغريت التي عاودت الاتّصال به:

- أنني بالقُرب منك! أرجو أن تنزل لأراك..

أقْفل نور هاتفه مع ساعات المساء هذه، ونزل بخطى مُتسارعة، وهو يحملُ بين يديه لوحةً مُغطّاة بالسّواد، ذلك السّواد المُشابه لسواد معطف لامير، الذي ذهبت أنفاسه، وهي الآن تتزاحم في فضاء الحبس.

اقترب نور من مارغريت وأمدّها باللّوحة قائلاً:

- أرجو أن تحتفظي بها!

- ما هذا؟

- إنّها لوحة فنّية. وقد أعطاني إياها لامير.

وكأنما استغربت طلبه قائلة:

- مارغريت تعلمين الأوضاع، وتدركين أنّنا - نحن العرب - أمسينا مرغمين محل شك وريبة، وأخشى بسبب هذه اللّوحة التي تحمل رائحة لامير أن أسجن،... فأرجو تفهم الأمر، فأنت فرنسية على الأقل...

هضمت مارغريت حجّة زميلها، مُدْركة أنّها شريكةٌ في شيءٍ لا تعرفُ كُنهه. نعم شريكةٌ في أخذ ما ليس لها، ولكن عزاءها أنّها تعرف صديقها عزّ المعرفة، لتُجيبه:

- اطمئن، سأحفظها عندي، ولن يعرف أحدٌ بها.

شكر نور زميلته، بابتسامة اختزلت كل العرفان، واختزلت تثمينه الدّاخلي لها، المُرادف لقوله في أعماق نفسه:

- لا يُشابهك إلاّ الأخوات الرّاهبات... أولئك الذين أوصى النّبي العربي أُمّته بهم.

عادت مارغريت إلى بيتها المتواجد في ضاحية هادئة غرب شومبيري، لتذهب مباشرة نحو غُرفتها الموجودة في الأعلى بالبيت الأنيق، والذي يُذكّر ببيت الشّعراء الرّومانسيين. وها هي تصعدُ إلى غرفتها الصغيرة، الصّغيرة في كل شيء، تماماً كما تُحبّ مارغريت، إلاّ شاشة هاتفها المحمول الكبيرة الحجم، فلم تقتنيها إلا لضعف بصرها. فهي كعادة - الفرنسيين - كثيرة القراءة، وربّما الكتابة، قليلة الحديث إلاّ مع المُقرّبين.

وها هي في السادسة من المساء الدّيسمبري العاشر، وحالها تماماً كحال الأهل وكل المدينة، بل وكل أوروبا في أجواء العام الجديد، باقتراب خُطواته وذكرى ميلاد المسيح. آثَرَتْ ترك اللّوحة لشأنها حتى موعد السّهرة، عساها تُدقّق النّظر فيها وفي ألوانها... أليست لوحة فنية؟!

لا شكّ في ذلك، فهي لا تشك في ذوق الذّواقة وخاصة نور.

بعد سُويعاتٍ قضتها مع الوالدة المُرهقة بسبب المرض، والجلوس معها على مائدة العشاء، صعدت مارغريت إلى غرفتها. وها هي ساعة النّوم قد حلّت.. حملت كعادتها كتابها لهذه اللّيلة، وهو من رائحة الشرق "ألف ليلة وليلة"... ولكنّها تركته بمجرد أن تذكرت أنّ عندها اليوم زائرٌ جديد يكسوه السّواد. إنّها لوحة نور التي أودعها عندها.

بدأت مارغريت تتأمّل لوحتها التي وضعتها - صدفةٌ - بطريقة مقلوبة، لتتأمّلها، كمولود جديد يهفو للحياة ويرنو إليها بعيون الأمل الدّفاق، رغم أن العيون مُقفلة، إلاّ أنّ القلب في تمام تفتّحه..

تحسّست بأناملها الرّقيقة، النّاصعة البياض حواشِي اللّوحة، وكأنّها لا تُريد تفويت أيّ فرصة للتّمتّع، ولا أيّ شعور يُلازمها، قبل أنْ تتأمّل كل اللّوحة. بل قبل أن تنزع عنها ستارها الملفوف في وشاح اللّيل. وإذْ بها تُبْصِرُ ألواناً جميلة زاهية، متآلفة بباقة من الورد، وعليها يطغى مزيجٌ لا يكادُ يُشابهه مزيج بين اللّون الأزرق والأحمر، وحيّزٌ يملؤه اللّون الأخضر، يكاد يُهيمن على كامل الفضاء المحيط بتلك الورود.

مع تأمّلها هذا، فاجأتها الوالدة بدقّات الباب الخفيفة.. وكأنّ مارغريت لم تُرِدْ أن تُخبر أحدا بما تملك، فسارعت بتغطية لوحتها تلك. لتستجيب بعدها لطلب الأم، التي ذكّرتها بموعد زيارة الطّبيب مع الصبيحة.

استلقت على فراشها المُواجِه لنافذة الغُرفة، التي تكاد تكون كتلة واحدةً من الزجاج. وهي تُحلِّقُ في عالم النّوم الحافل بالهدوء والسّكون تماماً كابتسامتها، في عالمٍ خالٍ إلاّ من المرح والتّصابي.. وهكذا غادرت مارغريت محطّة النّعاس، لتَلِج عالم النّوم، مغادرة عالم اليقظة المُتعِب، وتتمتّع بدفء فراشها الوثير، لكي لا تشعُر بالدّنيا خارجاً، والتي تزداد برودةً، وتتصارع رياحها في الدّخول لأيّ منْفذٍ من أيّ بيتٍ تستقرّ فيه..

... وما هي إلاّ ساعة زمنٍ، حتى فتَحتِ الرّيحُ العاتية منفذ نافذة مارغريت، لتستفيق على وقع سقوط لوحتها العتيقة.

وما كادت تصحو وتُغادر فراشها لإغلاق النّافذة، حتى عاودت في طريقها، المُضاءِ بمصباحِ مكتبها الذي يكاد يأفل، إلقاء نظرة الاستفهام، التي رافقتها منذ أنْ رأت اللّوحة لأوّل مرة، مُجددًا. لتتفاجأ، بكومة أوراق مُلتصقةٍ بعضها ببعض، وقد ابتلّت شيئاً ما، مُلقاةً لأسفل اللّوحة التي هوت إلى الأرض. لتسأل مارغريت نفسها من جديد:

- ما هذه الأوراق المُلتصقة بكلّ هذا الإحكام؟

لتُلْقي مرّةً أُخرى نظرةً على لوحتها، وتُكرّر الاستفهام:

- ما هذه اللّوحة الغريبة؟

ومع قدوم أسئلتها، غادر النّوم أجفانها، ووجدت نفسها تُجالس لوحةً، أمْست غير التي كانت. وها هي تُعيد تفقّد المكان الذي سقطت منه تلك الأوراق، والتي بدت عتيقةً، رغم أنّ مارغريت رأتها بدون نظّاراتها، التي ما تزال بجانب وسادتها. وكم كانت مفاجأتها كبيرة، إذ أنّ قماش اللّوحة الخارجي، والذي أمسكت به ببنانها وسبّابتها لتستشعره، تُخفي صورةً أُخرى بداخلها، تكاد تكون مُشوّهة لكثرة الغراء اللاّصق بها.. وقبل أن تفعل أيّ شيء، جال بخاطرها أن تأخذ تُحفتها هذه إلى أهل الصنعة الثقاة، علّها تستشفُ حقيقتها أكثر، ولكن.. ماذا تفعل ونور هو صاحب الشأن؟..

أغلقت مارغريت النّافذة مرّة أُخرى، فقد أحست بالبرد، وآثرت أنْ تأوي لفراشها ربّما تستسلم للنّوم من جديد، بعد يوم شاق وبارد. هذا البرد الذي تُصارعه أوروبا منذ الأزل، بل الدّنيا كلّها.. تماماً كما يُصارع لامير، القابع في سجنه أنّة القهر، ومعه دوماً أنفاس "فارتي"، عبر حبرها الأزرق الآزوري، فهي من تدفّئ دواخله، فجسده لم يعد يستشعرُ شيئاً، لقد زالت منه - أو كادت - حواس الاستشعار، إلاّ ذوق الاطّلاع المُطيع لأمر السجّان آلان، الواقف على رأسه ليلةً أُخرى.

ولكن قبل أن يطلُب منه –كالعادة- مواصلة قراءة فقرات المُذكرات المُتبقيّة، ها هو يُبشّره!!:

- ألم تعلم؟

سكت لامير، وهو يُبْصِرُ إلى سجّانه، غير قادر على قول شيء، وكأنّ عيونه تطرح السّؤال:

- ماذا؟

أجاب آلان، وإذ بابتسامة كأنّها غُذّيت بتوابل المكْر الدّافق على الشّفاه:

- إنّ زميلك، سيقْبَعُ بالقرب منك.

وأشار إلى غرفة بذات السجن بمُحاذاته قائلاً:

- هناك!

لتهتز، بعدها، أركان لامير لهذا التّهديد، تماماً كما فَعَلَتْ هبّة الرّيح، حين سأل مُلْهِمه لامارتين دون أن يدري - حينها - أنّ الزّمن هو من انتفض مُخبراً إيّاه أنّه في عالمٍ، ومُلْهموه في عالمٍ آخرَ.

وأجاب لامير سجّانه رغم عدم مقدرته:

- ما ذنب نور؟

- ألا تعرفُ حقّا ما ذنبه؟

لتَعْلو مع السّؤال، قهْقهاتٌ ماكرة، وهو في طريقه للمُغادرة، مُجدّداً بعدها الحديث:

- لا تقلق، ستكون أوّل من يستضيفه... (وأضاف ضاحكاً) ويُكْمِل معنا رحْلة...؟

وتوقّف آلان عن الحديث، مُستفْهِماً عن اسم الرّاهبة، وهو يمدّ رأسه نحو وجه لامير:

- أليست الأخت... (وهو يُشير بأنامله على السّماء).

لتهوي ظُلْمة اللّيل وتُغطّي الدّنيا بثوبها، عساها ترى نور يومٍ جديد.

بحيرة الملائكة

21

مع الصّباح، أعادت مارغريت ترتيب كلّ شيء، إلاّ تلك الصفحات التي غلّفها السّواد، الذي أمسى رفيقها، سوادٌ كان رمز الكثير في عصرٍ خلى. عصْرٌ كان لأمثال روان أن تحفل بشيءٍ منه.

... ذلك الشّيء، ما هو إلاّ سُمْرةٌ عتيقة، كالخمرِ المحجوبة عن العيون والهواء، سُمرةً كانت إغراءً لكلّ عينٍ شاهدَتْها. كما في رحلتها الأخيرة، بُعيد عودة زوجها العنّين. فبعد اكتمال الاتّفاق الذي رسمتْه، فرّتْ روان. لأنّها ببساطة سوف لن تعود، لقد حنثت بيمين الاتفاق، آخذةً معها هديتها الموعودة لزوجها، ووديعته المسلوبة من صفوة أهل الشّرق... والغرب معاً، ورحلت...

رحلت روان في رحلة طويلة، زاد البرد في إطالتها، نحو أوّل مرفأ ببلدها الأم الدانمرك، وهي تُخْفي تحت إبطها مُذكّرات الأمير، وتُخفي معها - دون أن تدري - مُذكرات لامارتين، التي جاء بها زوجها أيضاً، وذلك غداة دخوله بيت الشّاعر، راغباً في احتساء فنجان قهوة ساخن، يُذهبُ عنه لفح الجوّ البارد؛ ولكن طفت لهفته للشّراب، حين لمح قنّينة خمرٍ من النّوع الفرنسي الرّاقي، أنسته البُن ورائحته الدّافئة، لينْتظر سهو الخادم... وما هي إلاّ هُنيهة، حتى اندفع ليُغطّي القنينة بمعطفٍ بإزائه - يبدو أنّ الشّاعر ألقاه على الكُرسي الجلدي اللّين - ليَخرُج بعدها نحو العربة مُسرعاً، واضعاً في جيبه - قبيل الوصول إليها- ما سقط منه على الأرض المُبْتلّة. الدّفتر الصغير الغامق اللّون. ليُسارع بإلقاء المعطف الذي يلفّ الخمر والعلم على مُقدّمة عربته، واضعا في الجيب ذاته مُذكّرات الأمير، لتُرافق - دون أن يدريَ بها - مُذكّرات لامارتين النّائمة في الدّفتر الأحمر الصغير المُبْتلّ لتوّه.

... ما هي إلا لحظات، حتى حنّ للخمر ورؤياها، ليضعها من جديد داخل سترته، التي انطلقت منها رائحة العفن، إلى حين وصوله إلى وجهته، وما تلك إلاّ أمبواز، حيث ترك روان.

وصلت روان، قُبيل أعياد الميلاد إلى آيسبيرغ، وهي تتستر من البرد، بأقدام تسير على أكوام الثلج المُتساقطة، النّائمة على المرفأ. حتى تصل إلى غايتها، إلى تلك الدّيار، التي آوت إليها وهي تُغطّي وجهها في ثوب السّواد... دارٌ لا يتردّدُ عليها إلاّ الأعيان من ذوي النّفوذ، من تُجار المرفأ وتُجار الرّقيق المُنْتقى.. رقيقٌ من بني جِلْدة السّمراء. أولئك الذين يُمتّعون النّفس آخر كلّ أسبوع مع أجسادٍ جديدة، ومُتَعٍ غير مألوفة، من مثل جسد روان العشريني، وتمايله وفتْنَتِه.

لقد خسرت روان كثيراً، ولكنّها اخذت أكثر. مالٌ يكفيها للتّرحال متى وأين شاءت.

... مالٌ فضحها حين وصلت من جديد إلى مرفأ أيسبيرغ، حين سقط - فجأةً - منها كيسها المملوء ذهباً وفضّة، لتُبْصره عينٌ جائعة، عيْنُ شابٍ سكندنافي، ارتسمت على وجهه ألوان الفقر، وعلى كل نظرةٍ مُنبعثة من عيونه الزّرقاء. لتسارع روان في المشي حين استشعرت نواياه بنظرةٍ منها... ولكن لا سبيل لها إلاّ الفرار... وهكذا طغت غريزة الهروب على الضّحية - التي لا تكادُ تُرى وهي مُتخفّيةً في أثوابها -، وغريزة الجوع على العدّاء الشّمالي، لتنطلق الخطوات ويبدأ العدو كأنّ الغاب هو المسرح، وعيون النّاس مُحدّقةٌ بهما، كأنّهما غريبان في أرضٍ غريبة.

وما كادت خُطوات روان المُسرعة خوفاً، تصلُ بها على آخر الطّريق وأوّل كنيسة، حتى انقضّ اللّص عليها، مُستغلاً أفول طاقتها وفَقْدِ سُرْعتها، ليَهْوي عليها - غير عابئ بأنوثتها - بضربةٍ أسْقَطَتْها، فيحْمِلَ بذات سُرْعتها ذخيرتها الذّهبية، مُغادراً بعد ذلك بخُطىً اختفت مع الزّحام.

غادر في زحام المدينة والمارة القلائل والثّلوج الكثيفة. أمّا روان فقد فقدتْ ما تملك، بعدما فقدت ما كانت به أُنثى، ولم يبق إلاّ وعيها لتَفْقِده.

ارتمت بين أكوام الثلج جُثّةً هامدة في الشّارع الطويل، كجُثث موتى الحروب والأوبئة.

في الجهة المُقابلة للشّارع المُزدان في آخره بالكنيسة، عادت فرقة الرّهبان بخُطى الوقار، طاردةً لفح البرد بهدوئها، يتقدّمهم الأب ر. أندرسون، حاملاً في كفّه البيضاء ما خطّته

أنامله من قُدّاس المُباركة. مُباركة زواج ابنة العُمدة من قرينها القاطن بعاصمة المقاطعة "ريباص" Ribes.

ما كادت تنتهي خطواتهم العائدة إلى الكنيسة من وداع الزّوجين، حتى أبصرت عيونهم كُتْلةً تتوشّح السّواد. لتسكت الأفواه إلاّ أنفاس الأب المتسائلة، بعد أنْ تقدم فاحصاً ما هو مُلقى:

- ها هي ضحيّة أُخرى، من ضحايا تُجّار الرِّق العابثين؟!

رد أحد الإخوان:

- أصبحت آيسبيرغ، سيدي، مقبرة العبيد ومآسيهم، بعدما أنحلتها الرّذيلة والبغاء.

- إنّ المال، ليس له - يا أبنائي - هويةٌ ولا دين. تماماً كتجارة الرّق هذه.

ليُضيف الرّاهبُ مُتنهّداً:

- وها هم جيراننا الإنجليز، كالبعض منّا، يُعيدون إحياء مأساة "يورك"، مُشجّعين.. مستطيبين بما يُغضب الرّب.

لينظر إلى من حوله مرّة أُخرى، طالباً منهم:

- احملوا معي - رجاءً - جُثّة من بني جِنسكم!

مُجدّداً الدّعاء:

" ليَحمي الرّب هذه الإنسانية... من رذيلتها الطاغية"

حُملت روان التي أضحت كشذراتٍ سوداء في محصول الخبر النّاصع البياض، المُشابه لأكوام الثلج هذه.

بحيرة الملائكة

22

ثلجٌ هو دائم الرّفقة لهذي البلاد، كرفقة أهل الأمير، صاحب المذكرات النّائمة ورفيقتها في يد مارغريت، التي ما زالت تنتظر ساعة استيقاظ نور، لتسأله عمّا وقع لها، بعد أنْ كرّرت الاتصال به دون جدوى. ولم تجد بُدّاً وهي في طريق مُرافقة والدتها إلى د. جولاص إلاّ الإطلالة عليه في مقر سكناه، أين غادرها بعد عودتهما من مكتب "فيناس".

قادت سيارتها، وهي تتساءل عمّا منعهُ أن يرد على مكالماتها العديدة، ولا تجد جواباً غير الصبر، حتى تصل إليه، عسى في الأمر شيئاً ما.

واصلت بسيارتها الصغيرة، المسير في زحام الطّريق. وكأنّ سيارتها لا تستطيع أن تفوق سُرعة الدّراجة، فما إنْ تسير لبضعة أمتار إلاّ وتتوقف لأُخر. ومن حين إلى حين تسترق مارغريت النّظر إلى المحلاّت، الموضوعة كالدُّرر على جانبي الطريق، والمُمتلئة بهدايا نهاية العام المُغرية. وخُطُوات النّاس المُتسارعة من هنا وهناك، وإنْ كانت كل الحياة - هنا - تدبّ فيها الحركة. فاليوم أوّل الأسبوع، ووقت الذروة الصباحي هذا، هو ما اختارته - دون أن تدري - لتصحب والدتها وتتركها عند طبيبها في الموعد الصباحي المُعتاد.

ما كادت مارغريت تتوقف مرّة أُخرى، حتى خطر لها، وهي تُبْصرُ إحدى المكتبات التي استطاعت تشفير أحرفها الأولى، أنْ تسأل صاحبها عمّا لديها من لوحة، رُبّما تجد عنده بعض الإجابات.

نزلت من سيارتها بالرّصيف الذي يكاد يخلو إلاّ من بعض المارة المُقلي الخُطى، واتّجهت صوب المكتبة التي اقتربت من لافتتها المُزدانة بالخط الإيطالي "فلورنسا". مكتبةٌ صغيرة أنيقة كما بدت في عيني مارغريت، التي رأت أبوابها - لسوء الحظ - مُغْلقة، ولم تجد وهي تبحثُ عن أيّ إشارة في أبوابها الزّجاجية، إلاّ لوحةً بداخلها

أجْبرتها على الانتظار، مكتوبٌ عليها:" سوف نعود بعد هُنيهاتٍ قليلة... شكراً على الانتظار".

لم تجد مارغريت، بعد انتظارٍ بدأ يطول، إلاّ مواصلة طريقها.. طريق أشْعرها أنّها تأخرت عن والدتها. ولكنّها قبل أن تُقرر أخذ طريقها، تذكّرت نور، فأعادت مهاتفته، ولكن دون جدوى.

نور الذي استشعر من قبل أن السّجن يُناديه، قبل أن تتخطّفه أصفاد آلان سويعاتٍ بُعَيد أنْ أعطى اللّوحة لـ: مارغريت...

مارغريت الوفية لأمانة نور، ها هي دائمة التّفكير في مصير رفيق الدّراسة، ولا تجد إلاّ إجابات هلامية لأسئلتها الحائرة:

- أَتُراه رحل؟ خشية على مصيره - كما قال ـ ربّما!؟

وما هي إلاّ هنيهات، حتى رأت - وهي تتهيأ للرّحيل - أقدام، صاحبة المكتبة على ما يبدو، تقترب، وهي تحمل صندوقاً من الكرتون، وتفتح بابها الشّفاف، لتترك الهواء يرتمي، وهو الضّيف الوحيد الذي دخل مع أوّل دورة مفتاح، إلى تلك المكتبة الهادئة...

تقدّمت مارغريت نحو وجهتها، لتترافق خطواتها. وهكذا دخلت إلى المكتبة، وبهدوئها ألقت التّحية:

- صباح الخير سيدتي!

ترُدّ "هيينا" بذات الهدوء مُغلّفاً بالتّرحاب:

- صباحٌ أطيب... تفضّلي آنستي.

ألقت مارغريت نظرة خاطفة شاملة على المكتبة، كأنّها أرادت أنْ تُذيب جليد النّظرة الأولى، وقالت متسائلة:

- لم أكنْ أعلم أن هناك مكتبةً بهذا الحي، بكل هذا التّرتيب، وهذه الأناقة؟

- إنّ الوجه ليس غريباً عليّ، فهل أنت من هذه المدينة؟

- أجل أنا أصلاً من هذه المدينة... وقد أسعدتني رؤية مكتبتك سيدتي.

أمدّت "هيينا" يدها، بعد أن اقتربت من مارغريت، لتُصافحها:

- أنا هيينا فرانسواز.

وأضافت مُعقّبة على حديث مارغريت:

- ربّما لم تخطئي، فقد اختفت هذه المكتبة لمدّة ليست بالقصيرة، بسبب حريق أتى على جُزءٍ، وهذا ما دعاني إلى إعادة ترتيبها. كما أنّ مساحتها أصبحت أقل بكثير ممّا كانت عليه.

- هل كانت أكبر فعلاً!.. يبدو من رائحة الكُتُبِ، أنّها كانت تزخرُ بالكثير من الكنوز..!؟

وعلت مع هذه الكلمات ابتسامات من السيدتين، حرّكت خطوات هيينا لتقترب من نافذة المكتبة التي مرّ لامير يوماً بجانبها، لتقول بصوتٍ بلغ مسامع مارغريت، رغم أنّه خافت:

- انظري لهذا البربري، الذي يتخيّلُ نفسه في البادية!

مُشيرةً إلى شيخٍ بزيّه المغاربي، وهو يسحب أُضحيته من سيارته.. لتستدرك ثانية وتعود بالحديث إلى مارغريت، عساها تمحو الشّرود أمام النّافذة:

- نعم يا آنسة، فالمقهى بالجوار كان تابعاً لها... حتى أنّه كان قبلة المُخْتصين في المخطوطات والكتب القديمة..

أعادت المخطوطات والكتب القديمة لذاكرة مارغريت جزأها المُحْتَفظ بلوحة نور، وما كادت تستأنف الحديث، حتى علا صوت هاتفها يُعْلِمُها أن الوالدة تستعجلها في القدوم.

اعتذرت من السيدة، وغادرت نحو سيارتها بسُرعة، لتَلِجها كفراشةٍ حالمة، رغم وزنها الزائد، والذي تضاعف لاعتيادها السيارة. وقبل أنْ تشغّل مُحركها، عاودت الاتصال بوالدتها عساها تصطبر، فالطّريق أضحى مُزْدحماً على غير عادة المدينة، التي لم تكُ مثل باريس في الاتساع والحركة. وهكذا غادرت ناسيةً أن تُعرّف باسمها لـ هيينا.

وصلت مارغريت إلى العيادة، لتجد الأم في الانتظار، لتصطحبها إلى السيارة في هدوء، مثل هدوء البحيرة التي تُعرف بها شومبيري. وفي الطّريق تسأل مارغريت أمّها نادية:

- كيف جرت الفحوصات؟

أجابت الأم وتجاعيد الوجه من حول الشّفاه باحت بالكثير:

- كالعادة، فحوصاتٌ كثيرة ومتاعبُ صحّية دائمة التّكرار!

- ألم تسأليه ما السّبب؟

- بلى، وقد أخبرته أنّي منضبطة في مواعيد الدّواء.. ولكن..

- ما الجديد؟

ردّت الأم نادية بمزيج من اليأس، وشيءٍ من الاستفهام يُغلّفان ملامحها:

- لا شيء!؟

حرصت مارغريت على استنباط استفهام والدتها بالقول:

- ماذا هناك يا أُمّي؟

تردّدت الأم، لتبوح أخيراً، وكأنّها تخشى من أيّ تجربة جديدة عن مرضها:

... لا شيء سوى لقائي بطبيبٍ شابٍ، كان برفقة د. جولاص، يبدو أنّه صديق..

وزاد استفهام مارغريت لتسأل من جديد، وهي تقود بهدوء:

- ماذا أيضاً؟!

- اقترح علي - بعد حديث دار بيننا - أنْ يصطحبني معه إلى تُركيا، حيث يُمارس عمله، فقد تخرّج منذ أعوامٍ من هنا..

وسكتتِ الأمّ، وهي تُبْصر من خلال نافذة السيارة، تاركةً المجال لـ: مارغريت، لتسأل مُجدّداً، بشيء من المُزاح يُنسي نادية شرودها:

- كيف يصطحبك! ألِلتجوال والرّحلة؟

أجابت الأم، وهي لا تزال تتأمل الحياة عبر النّافذة:

- نعم، على ما يبدو... فقد قال إن حالتي - حسب ما أخبره د. جولاص - هي أحد موضوعات بحثه الأخير...

وبشبه دمْعة أضافت:

- بحثٌ عن الأورام المسببة للسرطان.. وأضاف أنّه سيوُفّر لي المجال للرّاحة والعلاج.

أجابت مارغريت باقتضاب وسرعة:

- بكلّ هذه البساطة؟!

لتُجيب الأمّ ببراءة الأطفال، والأملُ الخفي يحذوها:

- أجل. وقد أكد لي د. جولاص، قبيل خروجي أنّ عيادة صديقه مُجهزة بما يتيح المساعدة في متابعة حالتي، إضافةً أنّها تقعُ بمكان بمنأى عن الضجيج. وسأحظى - حسبه - بالعلاج الكافي.

رمقت الأم ابنتها مُجدّداً مُستطردةً في الحديث:

- ... كما جدّد التأكيد أن الأتعاب المادية محسوبة، ولا داعي لأنْ أقلق! لذلك استلطفت الأمر... وتجاهلت جُهد السّفر. فقد أعياني - كما تدرين - الأرق الذي لولا بعض الأدوية لرافقني..

ربت على شفاه مارغريت ابتسامة دفّأتْ بها نظرات الأمّ الحزينة، قائلةً:

- هل استلطفت العلاج، أم صاحب العلاج؟!

ابتسمت الأم، لترتسم على مُحيّاها ذكرياتُ الشّباب، وقالت لابنتها:

- ولِمَ لا. عسى نستغل أوقاتاً لنرى إسطنبول - سويةً .

وجدّدت الأم السؤال مازحةً على طريقتها:

- أم أنّك، سوف لن تذهبي معي؟!

قطع دُنوّهما من المنزل استرسال الحديث، الذي يدعو - في آخره - إلى السرور...

وما كادت ابتساماتهما تدوم، حتى قطعت لوحة نور التي تذكّرتها مارغريت ذلك السرور، فعاودت النّظر إليها، بعد أن وضعت حقيبتها... لتتساءل عنه:

- أتُراهُ مثلها ينعَمُ بشيءٍ من الدّفء في هذه الدّيار الباردة، والتي لا تعرف إلاّ بساط الثلج، البساط الذي غطّى روان، وجعل ذوي القلوب الرّحيمة يحملونها، يتقدّمهم الأب أندرسون.

بحيرة الملائكة

23

حُمّلت روان إلى غُرفةٍ دافئة، كي تُرحّل على أكتاف الطّيبين إلى مثواها. إلى المقبرة التي يبدو أنّها ستحظى بجسدٍ غضٍّ. إنّ جسدها النّائم بين يدي الأخت أولقا سينامُ إلى الأبد، ولم تبق إلاّ ليلة أخيرة، وسينْطلق من الكنيسة التي تأسف أهلها غاية الأسف على هذا الجسد الذي سكت نحو قدره المحتوم...

كادت تُصبِحُ نعشاً، لولا أن أصغت راعية الكنيسة إليها، بعد فحص عون التطبيب لها، إلى أنفاسها اللّيلية وهي تشتعلُ سُعالاً، كاشتعال النّار في مدفئة الغرفة الشّرقية من كنيسة أيسبيرغ، التي ما تزال الوحيدة، تحت رعاية الأب أندرسون المُتزمّت في ثوب الرّقة، منذ قرابة العقد من الزّمن في بلد كلّ مؤمنيه بروتستانت...

حملت أولقا الخبر بأسرع من البرق إلى سيدها، وهي تسير في الرواق بأمتاره العشرين، والمُضاء بشيءٍ يسير من النّور الخافت. لتَجِده مع أحدهم في مكتبه، وتتقدّم من بابه هادئةً، وباستحياءٍ لا يكاد يُسْمَعُ همسه، فأنفاس دخولها لم تمِل بشُعْلة الشّمع المُعلّق في الجدران الأربع بمكتب الأب.

وهمست في أذنه، بعد أن أشار لها بالتّقدم، بإيماءةٍ وديعة وعينين ذابلتين نائمتين تحت أجفانٍ أعياهما الكبر:

- إنّ الفتاة حيّة!

- حقاً؟؟.. ولكن..

- إنّها تتنفّس. نعم سيدي..

استسمح الأب، طالباً المُغادرة من ضيفه، الذي وضع كرمه وسخاءه في جيب الأب أندرسون على مرأى من أولقا.

ومع تقدّمهما إلى غُرفة روان ليرياها، لم تسع أولقا الدّنيا وهي تستمع إلى دعوات الأب المتكررة، وصلاته التي لا تتوقّف:

- ليرعاك الرّب على اهتمامك بمن هم في حاجة!

تقدّم الأبُ حاملاً شموعه، لتُضيء دربه حتى غُرفة الرّعاية، وتقدّم... ليرى ذلك الجسد، الذي كاد يُقبر، وإذ بالحياة تدُبّ فيه.

واقترب الأب من سرير روان ونظر إلى أولقا:

- الشُكر للرّب على نجاتها.

ليعود بوجهه من جديد إلى أولقا موجّهاً الحديث:

- داومي على رعايتها...

وقبل أن يتركها، أعاد النّظر إلى الأخت مُجدّداً:

- تعجز الرّوح على شكرك... فأنت ملاكٌ بحق...

أجابته باستحياء:

- أبتي نورك يُدفئ ديرنا، رغم ظُلمة اللّيل البارد المحيط بنا.

ليُجيبها وصوت الدّفء ينبع منه كصوت الشّعراء:

- كدنا نفقدُ اللّيلة نجماً... فما الإنسان يا أولقا إلاّ نجم من النّجوم المحيطة بسمائنا. وقبل أفول أحدٍ منها أفوله الأزلي، ينشطرُ مُنْفجِراً، وبقدر قيمة النّجم ومكانته يكون هول الانفجار.

ما إنْ أنهى موعظته، حتى خرج وهو عليم أنّ نصيحته لـ أولقا، ولكل أبناء الكنيسة، وأوامره القليلة سيفٌ على رقابهم.

هاهي ليلةٌ لم تكن روان تتخيل، ولو للحظة، أنها ستقضيها في دارٍ غير الدّار. عوض عناق الأجساد الثملة ولُجّة الضحكات العابثة، ها هي بين أحضان الأرواح السّامية الدّافئة، عبر همس الرّهبان ودعة الحياة، عبر سكينة الجُدران المملوءة بأنوارها الخافتة، تماماً كوداعة ترانيم كنيسة المهد ببيت لحم... إنّها أنوارٌ ستحْتفل قريباً بذكرى ميلاد المسيح.

أُنيرت الدّنيا مع شمس يوم جديد، ومعه دبّت حياةٌ جديدة في جسد روان. وقبل أن تستفيق من هول ما جرى لها ولفح ما أصابها من برد، قامت الأخت أولقا - التي رعتها ليلةً كاملة - لتفتح الباب مُجيبةً الطارق.

لقد أتى الأب أندرسون، وبذات الحرص والاهتمام يسألها:

- كيف أصْبَحَت اليوم؟

- لقد تحسّنت رغم حالة الحُمّى التي اعتصرتها طوال اللّيل.. ويبْدو أنّها نامت بشكلٍ يدعو للاطمئنان.

- حسناً إذن! سوف أكون في المكتب إنْ كنت بأيّ حاجة، أو إن احتاجتْ...

ليعود بالقول كأنّ السؤال غاب لهُنيهة:

- ... بالمناسبة، هل عرفتِ عنها شيئاً؟

وبلسان تخللتْهُ الدّعابة أضاف:

-... فالهذيان يفضح أحياناً هوية المرء!

أجابت أولقا بذات الصّرامة التي عهدها الجميع منها:

- لقد وجدتُ شيئاً، قد يدعو للاهتمام!؟

- ... وما ذاك؟!

أخرجت أولقا من بين أغراض روان تلك المذكرات المزيج وقالت:

- يبدو أن هذه الفتاة تتقن لغات كثيرة... لمَ لا، وقد أتت من بلاد بعيدة!

نظر الأب إلى ذلك وهو يقول:

- نعم يبدو ذلك!

وبعد أن قلّب ما بين يديه، أضاف قائلاً:

- يبدو أنّها تُتْقنُ لغات الجنوب.

همست أولقا وكأنّها تسائل نفسها:

- إلى أيّ حدٍّ تراها سيدي كذلك؟

وجدّد الأب التأكيد:

- ربّما تُعيننا في بعض الأعمال. قد سخّر لنا الرّب من يُعيننا على ترجمة بعض التّرانيم المحفوظة منذ سنين... آمل ذلك!

والْتَفت ثانيةً إلى أولقا، طالبا منها استدعاء بيتر.

فاستفهمت دون تفكير:

- لماذا سيدي؟

ولكنّها استدركت:

- عفوا سيدي، أعتذر عن سؤالي.

- لا داعي للاعتذار أولقا، فالأمرُ ليس سراً. بيتر عاد لتوّه من فرنسا - مع بعثة الملك - وهو على ما أعتقد يعرف شيئاً من الإيطالية والفرنسية... قد يُفيدنا على الأرجح في معرفة المزيد..

وأشار إلى روان ليُضيف:

- وعن هذه المسكينة!

أستدعيَ بيتر، الذي يميل إلى القصر بعكس الكثيرين من إخوانه في الكنيسة، وبعيونه النّائمة الحزينة، خرج من وسط الرّفاق في رواق المكتبة، الذي يختزن الكثير من صور القرون البائدة، والمُتراصة في أغلبها بشكلٍ يوحي لمن يراها أنّها في طريقها للتّلف. غير أن بيتر والباقي من الرّفاق مولعين بكلّ شيء في تلك التُحف، وبالأخص صور أميرات وأُمراء فرنسا الذي ينحدر منهم مليكهم البائد.

أُخبر بيتر أن الأب أندرسون في انتظارهأ فترك اللّوحات المُعلّقة وغير المعلّقة، المكسورة الجوانب، وشبه العارية، قائلاً للرّفاق:

- إن سُلْطة الأب تناديني.

ونظر إلى أولقا سائلاً:

- هل في الأمر شيءٌ ما أولقا ؟

- اذهب وسترى!

وفي طريقهما، المُقابل رواقه لمكتب الأب، ألح بيتر على معرفة ماذا هناك.

فأجابته أولقا مُستسلمة لمعرفتها بإلحاحه:

- أتعرف؟ تلك الفتاة التي وُجدت بالأمس جثّة هامدة.

- نعم. وما شأنها؟

وأضاف مُتهكّماً، كعادته :

- ألم تأخذوها إلى مقبرة الرّقيق؟

نظرت إليه بعينٍ صارمة كأنّها تُعاقبه، وأشارت إليه بالسّكوت:

- أشْ! لا مُزاح في هذا الأمر بيتر... أنت في الكنيسة.

وأضافت:

- بل هي على قيد الحياة، ورغم سُمرتها إلاّ أنّ هناك من يشير إلى أنّها أتت - ربّما - من فرنسا أو إحدى بلدان الجنوب... هذا ما قاله الأب أندرسون...

أجاب بيتر، وكأنّه أدرك التّكليف:

- ولكن أولقا! تعرفين أنني بالكاد أعرف النذر اليسير من الفرنسية، فلم يَطُلْ مكوثي هناك..

قطعت أولقا حديثه بالقول:

- عموماً، اقتربنا، والأب في انتظارك!

ليواصل بيتر والأنفاس تسابقه لعدم مجاراته هرولة أولقا:

- .. أمّا الإيطالية، فلا أكاد أفقه حتى نُطْق أحرفها السّريعة مثلك!..

وصلا إلى باب مكتب الأب، لتدخل أولقا. أمّا بيتر، فقد بقي بالخارج مُنْتظراً أمام المكتب، الذي يكاد سكونه يُطفئ أطياف الشّموع. غير أن بيتر طال عليه الانتظار على ما يبدو.

بحيرة الملائكة

24

انتظارٌ طال هناك - منذ عقودٍ - في أيسبيرغ ولكنّ العكس تماماً في شومبيري. فـ مارغريت، التي خرجت بعد حديث أُمّها، لترى جديد نور. هذا الذي اختفى فجأة، ما تزال تُصارع أسئلتها...

وها هي بسيارتها الدّائمة الصغر والدّفء، تسير رويداً رويداً، ولكن كأنّ كل شيء توقف فجأة، ليسود هذا الشّعور المدينة وأرجاءها. رُبّما هي أجواء الثّلج...

آثرت مارغريت أن تكسر هذا الهدوء - الذي بدأ يُزعجها - بسماع شيءٍ من الموسيقى على مذياع السيارة عبر الـ F. M، أو أخبار المساء التي كادت تحين... على إيقاع ألحان فرنسية الرّنين، تُرافق الدّقائق المُتبقية:

♪ Tu m'as promis de revenir
Tes promesses où sont - elles ?
Où sont - ils nos souvenirs ?
Je t'attends à l'éternel...♫

وعلى رِتْمِ هذه الألحان الشجية، المليئة بإيقاع الحنين إلى الذكريات الجميلة، رنت مارغريت إلى الرّصيف المُبْتل، لترى - غير مًصدّقة - السيدة هيينا وهي مسرعة بمطريتها، وكأنّها تطارد شيئاً مُهمّاً.

فتقدّمت إليها، ومن باب السيارة، أهدتها التّحية:

- تحيّة طيّبة سيدة هيينا، أنا مارغريت!

تلْتفت السيدة بسرعة، وبعد جزء من الثانية تردّ بهدوء مع شيءٍ خفيّ من البرودة:

- أهلا بك مارغريت!
- هلاّ صعدت لأوصلك في طريقي، فأنا..
وقبل أن تواصل، توقّفت هيينا لتفْسَح الطّريق لمرور من هم أمامها من المارة، فتوقّفت معها سيارة مارغريت غير البعيدة عنها أصلاً.
ها هي هيينا تقترب من جديد من نافذة السيارة ومن مارغريت:
- أشكرك، ولكنّني أكاد أصِلْ، فبيتي بالقُرب من محل الصياغة هذا (وهي تشير إلى عجوزٍ بلحية بيضاء طويلة).
فردّت مارغريت:
- عموماً، كنت آمل أن نترافق. بالمناسبة كنت أودّ فعلاً أن أمُر عليك لأطلعك على لوحة كانت عندي... ومعرفة ما حقيقتها...
ما إنْ سمعت هيينا عن اللّوحة، حتى أجابت سريعاً:
- وأين هي؟
- إنّها معي الآن في الباب الخلفي...
وقبل أن تسترسل فيما دعاها لحفظ اللّوحة في السيارة، لما شاهدته في اللّيلة تلك، رأت هيينا التي استرجعت هدوءها. وبنظرة أرسلتها، بعثت شيئاً من ذكائها قالت:
- ولكن لا أستطيع الآن أن أُبدي أيّ شيء، وإنْ شاهدْتُها... حتى أتفقدها جيّداً، فهناك من هو أهلٌ لذلك، ثُم...
لتُقاطعها مارغريت تسبقُها سذاجتها في الرّد:
- ... لا بأس. يُمْكنك أخذها الآن، وفي الغد سأمر عليك إن شئتِ.
- حسناً.
عادت بعدها مارغريت أدراجها، وما عادت اللّوحة الآن برفقتها، بل لم يبق غير السّكون الذي أسكته، وأسكت استفهامه الغامض تلك الألحان الشّجية التي تًرافق حركات سيارتها الصغيرة.
ما إن قطعت بضع عشرات من الأمتار حتى أعلنت السّاعة السّادسة مساءً، لتُذاع نشرة الإخبار المسائية بذات الصوت المبحوح المعهود
"- مساء الخير، معكم "ماري لويز"، وإليكم أخبار شومبيري وضواحيها المسائية:
قالت تقارير صحفية إنّ هناك مساجين في الحبس المحلي يتعرّضون للتّعذيب، وبشكل غير قانوني. وأفادت التّقارير ذاتها أن أحد هؤلاء الضحايا، طالب في كلية الآداب، وهو من أصولٍ..."

ما كادت مارغريت تُنْهي سماع الخبر، حتى أدركت أن المعني هو - دون ريب - لامير، ولكنّ الطّمأنينة رفقتها فقد أخبرها المحامي أنّ الأمر لن يطول.

غير أن لامير سوف لن يطيق هذا العذاب، كما أنّه ليس وحده من يتعرض لذلك التّعذيب. تعْذيبٌ أنسى لامير شغف الحياة ووداعة الدّنيا. فهو لم يكن ليدري - ولو ليومٍ واحد بل لساعة واحدة - بأنّه سيأتي عليه يوم ليرى ما رأى. وممّن؟ من أحد وفود أرض وطنه...

لا زالت ليالي لامير كما هي. وها هي ليلةُ مرّت كمثيلاتها، ينتظر لامير معها صُبحاً جديداً... أمّا بلدة الشّعراء، فليس لها في مسائها الدّيسمبري إلاّ هذا السّجين وسجّانه.

توجّه آلان، الذي جُنّ جنونه، نحو لامير في سجنه، بخطوات الكره والعقاب، وقد قرّر أنْ يحسم أمر اعتقاله الذي انتشر خبره بين الصحف المحلية بإيعاز ممّن لا يدري..

وها هو يُلقي الضوء على الزنزانة، ولا يزال لامير مُكبّلاً فيه بالأحزان والأسى، ليُلْقي إليه بنظرة ريبة واستعلاء:

- لقد أخطأ زميلك الأحمق بإِخْبارِه الصّحف أنّك مريض..

وبلهجة التّهكم أضاف:

- نعم إنّك مريض وتتعرض للأذى و...

لم يجد لامير بما يرد، لأنّه بالفعل لا يفهمُ شيئاً، غير أنّه - ولشدّة ما قاساه - خرج من بقايا فمه المليء بالدّماء حديثه اليائس:

- لقد مرضتُ في سجنك.

ليرد آلان بعنف وبشدّة، وكأنّه مع ندٍّ له وليس سجيناً:

- لا... فهم يقولون - هؤلاء الحريصون على قذرٍ مثلك - أنّك مريض منذ مدّة.

وقرّب إليه الصحيفة قائلاً:

- اقرأ أيّها المحبّ للتدوين: ((.. علما أن أحد هؤلاء وهو الطّالب، يشكو - حسب مصدرنا - من مرض القلب منذ مدّة..)).

ليَرُدّ لامير، الذي سرت في روحه شبه راحة، وهو المغلوب على أمره:

- سيدي أنا مُتْعبٌ بحق. ألم يحِن أوانُ خروجي؟

ردّ عليه مُبْتسماً والتّهكم غلافُ لسانه:

- نعم ستخرُج، ستخرُج إلى راحة أفضل.. وأطول..

دقّت خفقةُ الخوف الكبير في قلب لامير المُتْعب، وكأنّه استشعر - بحق - أنّ السّاعة آتية... لا ريب. بل هي أمام عينيه، فلا يعرف ما ترى يفعل هذا المعتوه به، إذ جسّدها بشرارات من عينيه، اللّتين تزدادان حدّةً وحقداً.

ليُضيف آلان:

- ألم يقولوا إنّك مريض!.. لا تُجِبْ، سأجيب بدلاً عنك وعنْهم:

- إنّ هذا المرض - أيّها الحمقى - هو ما سيقتلك، ولا تظن أنّه مُخلّصك.

وأَخْرَجَ من أسفل إبطه سلاحه، الذي أدخل الرّعب - مجدّداً - في قلب لامير، الذي كاد يتوقف، وبدأ آلان يقتربُ بمُسدّسه الأسود البارِد من أنف لامير، وهو يُكرّر، كمنِ أُصيب بهستيريا:

- سأُخلّصك من المرض أيّها المرض!!

لم يقو لامير على قول شيء إلاّ:

- أنت تعلم بأنني لم أُخبره - ولا سواه - بشيء، بل ليس لي علمٌ بما كتبت الصّحافة، كما أنني - بالفعل - أشعُرُ، وكما ترى...

وكأنّ الاستجداء من فرط المعاناة سرى كالسيل في فمه:

-... أن المرض كبّلني، وليس ادّعاءً. هلاّ أشفقت علي من أجل دراستي التي أخذت سنيناً من عمري..

ونظر إلى آلان نظرة استجداءٍ أُخرى:

- أنسيت أيّها الشاب أنّك مثلي في دماك أكاسير الإباء تسري؟!

وكأنّ هذه الكلمات زادت من حنق آلان لا العكس:

- أغاب عنك هذا الإباء - أيّها البدوي - ولسانك القذر يصفُني بأمثال.. أولئك؟!.. لا، لا تستعطفني.

وزادت نيران الغل تتأجّج في صدر آلان وهو يقول:

- سوف أُنجيك من هذا المرض، بل من هذه الحياة نهائياً.

ليُقرّب مُسدّسه بشكلٍ يكادُ يغرزه في جسد لامير، وهو يصرُخ في وجهه:

- سأطرُد عنك المرض.. والإحساس به!!

وما نطق آلان بكلمة أو حتى بهمسة، إلاّ وازداد لامير من وقعها ارتعاداً ورعباً، ليستسلِم لخوفٍ مازجته شذراتٌ من شجاعة الذّاكرة، مُكرّرا دون وعي: ".. أشهد أن لا إله إلاّ الله..".

ما إنْ نطق بالشّطر الأوّل من التّوحيد، وسط هذا السّكون التّام الذي نزل لهُنيهة، حتى سمع هاتفاً يدنو من أُذنيه، ومن قلبه، ومن كل كيانه. هاتفٌ يعلم لامير طينة صداه.. لتَدنو أطيافه الأثيرية بصوتها الدّافئ اللّين، الذي تعلوه السّكينة والهدوء:

- .. وأنّ مُحمّداً رسول الله...

أيّها الفتى، ماذا دهاك؟ كيف بك تستسلم؟.. أفِقْ. ما يُعذّبك ويُهينك إلاّ نتاج بعض عملك...

ازداد دنو الصوت منه، وازدادت همساته هدوءً، ونبْرته نزولاً:

-... لقد عايشت شطرا مما عانيتَ، ورأيتني أنا الأمير واعٍ أنّك لم تر معاناة أمثالي في البوادي وسُبُلها وفي... وفي. ولم أستسلم - مثلك – لعذاباتي، التي أشعلها أمثال سجّانك... نم قرير العين، واجعل راحتك الأبدية الإيمان برحمة الله. وكلمة التّوحيد تلك رفيقتك، وكُنْ مثلما أرغبك.

انطلق - بعد أجزاء الثّانية هذه - فو لامير كفرس الأمير الجامحة، وكأن صوته ليس بذاك الصوت السّجين المُكبّل، ليُجيب وفي داخله الرّجاء أنْ يُسْمع صداه:

- مولاي، أيّها الأمير، يا عُنْوان الرّضا. منْ ألْهمكَ جعَلكَ تدري، أنني لست ممّن يحملون ذات جَلَدِك وصبْرك وصبرُ من تعرف من الصّفوة، وأنّى لي بذاك الصّبر، أنّى للسّكينة أنْ تتأتّى، والعذاب فاقها وفاق الاصطبار..

سرى الهاتفُ من جديد، ووراء صوته دف الأذان، الذي بالكاد يُصغي لامير لصداه:

- يا بُني، ما الذي دعاك أن تصبو - باحثاً - عن تلك الصفوة، وتترك حياتك التي جعلها لك المولى بسيطة وادعة، أَمَا كان عليك - وقد مضت - أن تجتهد في حياتك بعملك... و... دعك ممّا يُريبك. واطمئن.. رغم كل العذاب، سيفْرَجُ عنك بإذن الله، وستزول محنتك وتنطفئ كربتك.

خفت صوت الهاتف حتى كاد لا يُسْمع، وعلت من الأصداء الرّاحلة الأخيرة..

((..بُشراك. فأيدي مارغريت ستخرجك... ثِقْ بذلك ...ثق)).

ورحل الهاتف، ومعه كادت أنفاس لامير. ولم يعِ أهي أضغاث أحلام ستفنى، مثلما سيفنى عمره؟ أم هي رؤيا، وليست بمُقدّمة لسكرة الموت.. سكرةٌ آتية لا محالة.

غير أن الصوت ذاته عاود السير في مسلك أُذنه، قائلاً:

- ستنجو، ستنجو..

ليُبْصر لامير أميره، والنّور المُنْبعث من هامته يزدادُ وهجاً، ككِسْوته التي أشعرت لامير بالدّفء. كسوةٌ عنوانها برنوسٌ مخيط بأيدي العذارى، من وبر البادية. تعلوه وتُغطّيه جلاّبية نائليةٌ نائمة على كتف الوقار، والمُصاحبة للأمير حتى في سير فرسه، الذي بدا وهو يختال حاملاً الأمير كدُرّة بارقة. لا يكادُ يعرفُ المُبْصر بهما الجمال الأصلي من المزيد... إنّهما كتلةٌ واحدة.

... نورٌ كالوهج الوامض غمر عيون لامير، حتى حجب عنه الرؤية، ولم يعِ ويستشعر ذاته، إلاّ والأرض تهتز من تحت قدميه وكيانه بعُنفٍ وقُوّة، لم يشعُر بهما من قبل أبداً.. وكأنّه زلزالٌ يهُزّ المدينة بأكملها...

وما هي إلاّ ثوانٍ أو أقل، حتى انجلى الضبّاب الذي خلّفه ذلك النّور الذي حجب عنه كل شيء، إلاّ رؤية آلان المُرعَبِ خوفاً والمُرْتَعد ذُعراً، والواجم جزعاً وذهولاً. ذُعرٌ كَذُعْرِ الفريسة من قبس اللّيث المهزوز في كرامته... وإذ بأرضيّة السجن تنشطِرُ - فجأةً - إلى نصفين، جعلت من آلان المرعوب من هول ما يرى، والقابع في النّصف الآخر من السجن كتْلةً تهوي في فراغ، بدا كالهواء المُخيف، وصمتٌ رهيب لم يكسره إلاّ صدى آلان، الذي ازداد مع سقوطه في الحضيض المجهول حِدّةً وبُعْداً، تماماً كبُعدِ روان عن أمبواز، في كومة الضّباب المسائي نحو المجهول.

أمّا لامير، الذي بقي بصره ساكناً، لم يعِ شيئاً لفجأةِ ما حدث، غير سؤال نفسه الملفوفة هي الأُخرى بالخوف:

- ماذا يجري؟

وإذ بـ آلان يهوي إلى ذلك الشرخ السّحيق، وما زال صداه المُفرغ بكلماته المُزعجة والمُقزّزة، الممزوجة بالصّياح الحاد المُتسارع، يرِنُّ في أُذُن لامير كصوت الذّبيح:- آ... آ..

بحيرة الملائكة

25

وقع آلان في أسفل القاع السّحيق، ككيسٍ يملؤه التّراب، بأرضٍ سطحها يكاد يتجمّدُ من البرودة. وما إنْ استرد شيئاً من وعيه الضّائع، حتى حاول النّهوض، وهو ينظرُ من حوله مُستغرباً ما هو عليه وما آل إليه أمره، حاله مُضطربة كاضطراب الأحداث وفجأتها.. ليَعود إلى نفسه يُسائلها، وإذ بإحساسه مملوءٌ بالكلوستروفوبيا، والخوف يسري في كل جزء من جسمه المرتعش:

-.. واقِعٌ هذا أمْ خيال؟!... ما الجحيم الذي أُلقيتُ فيه؟.. تُرى...؟

ليُصْرع بصوتٍ يُجيبه، ولا يعرف له كُنها:

- الجحيم! أتتساءل ما هذا الجحيم؟!... هو شيءٌ أبسط بكثير جدّاً من الجحيم... هذا سجنك، الذي أفنيتَ بين جُدرانه أجساداً لا ذنب لها.

ليسْكُتَ كل ما حول آلان للحظة من الزّمن! لحظةٌ أغرته بأنْ يتشجّع، وتربو شذرات الكبرياء المُدخّرة في كيانه، ليَفصح لنفسه هامساً مُستفهماً:

- وما ذنبي؟!... موظّفٌ لست إلاّ...

ليعود إلى أُذنه الصوتُ ذاته:

- ألمَ يُجِبْكَ من أسَرْته، بذات الجواب؟؟

فتطفو في ذاكرة آلان أصوات لامير التي سجّل القدر له كلّ همسة قالها: (... ما ذنبي أنا، ما أنا إلاّ طالبُ علم...).

وسكت الصوتُ، ليتْبعه صداه، وتزداد بعده ظُلْمة المكان السّحيق، والذي لا موطنٌ له ولا قرار.

واستشعر آلان - أخيراً - أنّها لعنة آخر سجنائه، ليصيح، ولأمير يسمع، من جديد وصداه المبحوح يُغلّف كل شيء:

- ما ذنبي؟؟... ماذا فعلت؟!

أعيى آلان الصُراخ والنّواح حتى كاد يُفْقِدُه الوعي من جديد. ولكنه استعاد رباطة الجأش، وهو يُحاول عبثاً الوقوف من جديد، عساهُ يُبْعِدُ عنه هذه الظلمة الموحشة، التي لم يشعُر بها من قبل. ولكنّه لا يقوى على الحراك... لقد أُصيبت قدمه.

وها هو بيده - التي حملت المسدّس في وجه لامير - يتحسّسُ أطرافه السُّفلى.. وإذ بإصابة بالغة، زاد المُها حين أمْسك بقدمه اليُسرى، التي ما زالت تحفظ جراح وجه لامير، وهو ينهال عليه بحذائه الجلدي الأسود ضرباً في تلك السّاعة المشئومة التي أتتْ به إلى هنا حيث لا يعلم.

.. بعدما انجلت بعض العتمة المحيطة به، وقطعَ غفوته وقْعُ أقدام، تبين له أصحابها، حين اقتربوا منه على سطح الأرض الباردة الرطبة. رجالٌ بذات هندامه وبذات وجهه وذات حذائه الأسود المُثخن بالدّماء، كأنّهم جميعاً آلان - بل هم - توأمه. لم ينطق ولا واحد من ثلاثتهم ببنت شفا، وانهالوا عليه - فجأةً - ضرباً مُبْرحاً، لا يعرفُ كلاّ ولا ملاّ، حتى استنطقوا أعماق آلان دون سؤال:

- من أنتم؟؟

ليُجيب صوتهم الواحد المبثوث في ثلاثة أفواه:

- نحن آلان.

• دخل المُحامي فيناس، حاملاً في يده قرار الوكيل، قرارٌ بخروج لامير من سجنه هذا. رُفقة أحد الأعوان إلى السجن، وقد استشعروا تأخّر آلان. وكم كانت المفاجأة كبيرة وهول المنظر مرعب.

وقف الجميعُ أمام البوّابة، بمن فيهم عون الشرطة، الذي ذُهِلَ لرؤية سيده آلان وهو مُلْقى على ركبتيه، يضرِبُ برأسه الأرض كالمجنون وهو يصيح:

- ابتعدوا عنّي لست أنا من ضربه، لست أنا! إنّ فرنسا كلّها من تضربه...

وهكذا مع جدران السّجن الباردة، يردّ صداها على صوته الذي كلّه صياح.

بهتُ الجميع لهُنيهة، لكنّهم سرعان ما تدخّلوا لحمله، والعون لا زال يُبْصر آلان بعين الحيرة والإبهام. ليُوجّه بعد حين السّؤال - دون وعيٍ - للمحامي ومن معه، كأنّه ما زال مصدوماً:

- ماذا حلّ به؟

ليُجيب فيناس بملامح الوجه قائلاً:

- أنني مثلك تماماً، لا أعلم ما جرى؟!

وإذ بالمنظر يدعوهم لطرح أكثر من سؤال.

أمّا لامير، الذي تناسته الأعين لهول هذا المنظر الغريب، فقد قام وحاله كحالهم، ناظرا تارةً إليهم وتارةً إلى آلان، المحمول على سواعدهم وكأنّه فاقدٌ للوعي، محاولاً بين الفينة والأخرى الوُقوف والسير على قدميه، إلاّ أنّه لا يقوى على ذلك...

وبعد صمت لحظات، استفاق المحامي من ذلك الذّهول، وبعد إخراج آلان واستدعاء الطّبيب، تقدّم من لامير:

- سيد لامير، قبل أن أسألك عن كلّ هذا (وهو يشير إلى مسرح الحدث) أُخبرك أنني جئتُ لإخراجك. فقد ثبت بعد التّحريات، أنّك بريء والأمر لا يعدو أن يكون خطأ في التّقدير ضُخّمَ دون سبب.

لينظر إليه لامير دون أنْ يقول شيئاً. تاركا للمحتمي إكمال حديثه:

- ... وكل الفضل - لكي لا تنسى - يعود إلى هذه الفتاة (وهو يشير إلى مارغريت) التي ألحت رفقة نور أنّك شخصٌ بريء و...

لم يقو لامير على قول حرفٍ واحدٍ كشُكْر للجميع، ليسْقُط من شدّة تعب الأيّام، وربّما تعب الإصغاء. لقد أصبح من فرط الإرهاق عاجزاً عن سماع أيّ شيء.

بحيرة الملائكة

26

بُعيد أيّام قليلة، وقبل أعياد الميلاد، زارت مارغريت برفقة والدتها والمُحامي الشّاب، لامير في المستشفى، ذاته ذلك الذي أُخذ منه إلى السجن من قبل، وها هي تُلْقي التّحية:

- صباح الخير لامير.

- صباح الخير

- ها هي أمّي والمحامي معي...

أهدى الجميع لـ لامير التّحية، عبر ابتسامات وتقاسيم الوجوه، التي ازدادت بهذا الفتى العربي ارتباطاً.

لـيَرُدّ لامير بذات التّحية مُجدّداً، ومعها أُلْقي عليه سؤال من مارغريت التي أحست بشيءٍ جديد لم يبرز منذ عرفت الزّملاء العرب:

- يبدو أنّك عانيت الكثير..؟

- الحمد لله. لقد تحسّنت حالتي..

ليُضيف، كأنّ الذهول الذي طغى عليهم ذلك اليوم، وُلِدَ عنْده من جديد:

... وماذا جرى لـ آلان؟

ليرُدّ فيناس بشيءٍ من العفوية:

-.. بل نحنُ من يسألك؟

استرجع لامير ذاكرته، مُستذكراً ما جرى منذ أسبوعين، وإذ بلسانه عاجزٌ عن شرح ما جرى. ولم يجد إلاّ القول:

- ... الواقع أنني لا أعرف. فحيناً أستفيق - في حالة السجن التي لا تخفى على أحد - وأحياناً كثيرة لا أعي شيئاً!

ليُجدّد إلى زوّاره الفرنسيين الحديث:

- صدّقوني لا أعرف شيئاً!

وبدأ وصف البرد الذي عاناه، وحاجته إلى دفء الأجواء كالتي أمامه الآن.

أنْصت الجميع إليه، ليَنوب فيناس عنهم في الرّد:

- لا عليك.

لتبرز عليه علامات الأسف، وهو يُعاود الحديث لـ لامير وللسيدتين:

- للأسف الشّديد.. فقد استعصت على طبيب المؤسسة حالته هذه، حتى إنّه لم يجد ليُوضح لي فرط ما وقع لـ آلان إلاّ القول: "حالة نادرة من الانهيار أو قُل الجنون - إن شئت - أو فَقْد التّمييز.."

ليُضيف:

"... حتى إنّه كسر رجله من كثرة ضربها الهستيري على الأرضية والجدار!!".

زاد فضول مارغريت لسماع هذا الحديث وألحّ عليها، لتقْترب من لامير أكثر، تُرافقها رائحة المسك، الممزوجة برائحة الدّخان الفرنسي، لتسأله:

- ما الذي دعاهُ إلى القيام بكل هذا؟.. ما تُراك لاحظت يا لامير؟

قبل أن يبوح لامير بأيّ شيء، لكأنّ الجميع - في أعْماقهم - يُجيبون، لكنّهم عاجزون على الإفصاح بالجواب.

تشجّع لامير، مُنهيا عجز التّعبير عمّا يُخالج الأرواح:

- ليس لي ما أقوله، بعد كل ما جرى، إلاّ أنّ الله أنهى مُعاناتي، وما هي إلاّ سويعاتٌ وسأكون في بيتي..

ليتنهد مُجدّداً:

-... السجنُ يبقى سجناً..!

سكت الجميع، وكأنّ صمتهم هذا إعلانٌ بانتهاء فترة الزّيارة، لتُغادر خطاهم، راحلةً نحو الخروج.

وفي أثناء ملامستهم الباب، لم يجد لامير بدا من سؤال مارغريت عن نور، والذي - رغم ما عاناه - لم تغب صورته عنه، ولكن الزّائرين - بمن فيهم مارغريت - غادروا بسرعةٍ أَخَذتْ معهم سؤاله... لقد خرجوا، ولم يجد - بُعيْدها - إلاّ أن يطلُب من الممرضة التي رعته طول استشفائه من قروحه، المُنْتشرة كالفطر في جسده النّحيف، أنْ يتّصل عبر الهاتف قائلاً:

- هل أستطيع استعمال الهاتف؟

- بالتّأكيد (وهي تنظر إلى هاتفه الأنيق المُلقى على طاولته الشّمالية).

وشغّل الرقم الوحيد الذي استطاع حفظه في ذاكرته:

- ألو!

- من معي؟

- كيف حالك يا عزيز؟! أنا لامير!

وكأنّ الحيرة جعلت الأنفاس تُعوّض الكلمات:

-... أوه. كيف حالك؟... ولكنّني عاتِبٌ عليك! ألا تُكلّفُ خاطرك يا لامير، وتُطمْئنني عليك كلّ هذه المدّة.

لتتغير نبرته الممزوجة بالعتاب الأبوي:

- أتراني غريباً حتى أعْلَم ما جرى عبر الصُحف..

- آسف والله على كلّ ذلك.

واسترسل في الحديث مُوضحاً، وقد ازدادت نبْرةُ صوته أُلْفةً بمُجرد سماع عزيز:

-... فكما تعلم. منذ آخر مرّة، جدّت عليّ ظروف أقل ما يقال عنّها إنّها قاسية..

واستدرك، كأنّه خشي من نسيان سؤاله:

-.. ولكن، قبل الخوض في هذا وذاك، وأنا أُكلّمك الآن من المستشفى، الذي سأُغادره بعد حين، أود أن أعرف إن اتّصل بك نور أو مرّ عليك أو... فهو لم يتّصل بي..

- أوه! ألا تعْلم؟

قفزت أسئلة خوفٍ بال لامير، اختصرها:

- ماذا هناك؟!

- مُرّ عليّ وسنتحدّث. فالهاتف لا يفي بالغرض... كما إنّها فُرصةٌ لأراك.

• أُقْفِل الخط، ومعه انْفتحت أبوابُ السّؤال ثانيةً، وكأنّ لسان حال لامير يقول:

- ما هذا الجديد المؤسف الآخر؟

تقدّمت منه في هذه الهُنيهة مُمرّضة من بين صديقاتها، بملامح غير غريبة على لامير، وكأنّها تُجيب على شيءٍ من سؤاله المدفون في رفوف الذّكريات المُتْعبة، قائلةً له:

- سيد لامير. أرجو المعذرة!

استغرب لامير هذا الاعتذار، الذي لا يعرف دواعيه. ولكنّه واصل الإصغاء:

- لقد سمعت في المرّة الماضية جُلّ الحديث الذي دار بينك وبين رفيقك. ومن خلاله آثرتُ ألاّ أترك اللّوحة عندي، أي في مقتنيات المستشفى، بعدما أشار العون لي بأخذها بعيداً عنك...

وواصلت الحديث بعدما ألقتْ نظرةُ خاطفة على من حولها:

- فلا تستغرب كتمان حديثكما عن أعوان الشّرطة. ولا تسألني لمَ وكيف!

لتُضيف وعلامة التّعاطف بادية عليها:

-.. فبعد قراءة ما جاء في الصّحف، أحمدُ الله على تصرفي الذي أرّقني لليالٍ.

لم يجد لامير مع هذا اللّطف إلاّ القول:

-... لقد منعتني من السّؤال، فليس لي ما أقوله إلاّ الشّكر الجزيل... كما أقول وأنت أدرى أن أيّ تصرف - مهما كان بسيطاً - أصبحت عواقبه في هذه الدّيار، بلْ أسوأ ممّا نظن.

وواصل حديثه بهدوءٍ أكبر من غيمة الدّفء المُحلّقة بغرف المستشفى الذي يؤويه:

- ولَكِ في تجربتي - الهّينة هذه - أكبر دليل.

مع هذا الحديث المليء بالألفة، عاد طيف نور ليطوف ببال لامير، فاستدرك قائلاً للممرضة:

- ولكن اعذري سؤالي! (وهو مُدْرك أنّ الجواب ميئوس منه كصاحبه)... ألمْ يسأل عنّي نور... رفيقي الذي كان معي في المرّة السّابقة؟

- لا.

وكأنّ هذا النّفي قطع الحديث. غير أنّها واصلت الاسترسال، وهي تهمّ بالرّحيل:

-... وكل ما بقي عندنا من أغراضك هو قطعةٌ فضيّة، كنت آمل إعطاءها لك، ولكن خروجك المـُبكر - حينئذ - دعاني لأَنْ أعطيها للباقي الوحيد من زُملائك مارغريت...

لتواصل بكلّ عفوية:

- وأظنّها أعطتْها لك؟!

كتم لامير جوابه عنها، كأنّه يلوم ذاكرته إذ نست قطعته تلك... إنّها هدية.

ولكنّه أجابها، عسى يُرضي رذاذ الفضول العالق بعينيْها:

- بلى، بلى لقد أعْطَتْها لي. ولك؛ ولها بالتّأكيد الشّكر الجزيل.

وغابت المُمرّضة عن عيون لامير، بلباسها الأبيض النّاصع، كما غابت بعض أسئلته عن نور ولوحة نور..

تلك اللّوحة التي ما زالت راقدة في غرفة هيينا، التي لم تعِ أنّها كانت في يوم ما بمُحاذاة مكتبتها تسير.

فها هي هيينا بعد شدٍ وجذب مع نفسها، وتردّد لا يعرف الاستقرار، تتّصل بصديقها أشهر صحفيّي البلدة جوليان جيرالدان وتُبشّره:

- أبشر يا جوليان! فهناك خبر سيشْعِلُ الصّحافة، وبالأخص هذه الأيّام... مع تجاذب الشّرق والغرب!

أجابها جوليان ساخراً من صديقته:

- أوجدّتِ سجيناً آخر؟

- لا تستهزئ!... فما شأني وهؤلاء "الحرّاقة"!؟

لتُجدّد إبداء بُغضها لأمثال لامير ممّن ذكرتْهم الصحافة:

-.. فما هو إلاّ واحدٌ منهم، وما الدّراسة إلاّ شماعة إنْ لم تكُنْ إشاعة و...

- ولكن منْ أخبر الصحافة مُحامٍ فرنسي..

- أرجوك جوليان، أُكلّمك في موضوع غير هذا. فلا داعي للإطالة...

وبشيءٍ من السّخرية التي لا تحلو له إلاّ معها:

- عن ماذا إذن؟ هل وجدّتِ تسجيلاً نادراً لـ حنبعل؟!

ردّت دون أن تُعير لسخريته اهتماماً، لشدّة ارتباطها به:

- بل أكثر من ذلك!

استفاقت الجدّية في حديث جوليان، فسألها:

- ماذا هناك هيينا؟

- لن أُخبرك حتى ألقاك في المساء!

تناسى جوليان أمر الموعد، وحاول أنْ يستشفّ الخبر:

- قبل ذلك أليس لي الحق في معرفة ولو فكرة!

- إنّها لوحةٌ فنّية نادرة، رغم تشوّهها!...

بحيرة الملائكة

27

تُرى ما سرّ اللّوحة هذه؟ هكذا تساءل لامير، مُجدّداً حديث نفسه:

- أُسبوعان من القهر، أنسياني على ما يبدو كلّ شيء!... ما عُدت أُميّزُ الواقع من الخيال... أم تراها ساعات قراءاتي لأولئك الشّعراء، وغُبار الرّومانسية العالق بهم أنسياني واقعي...؟؟

وهو كذلك بين جُدران المستشفى، مواصلاً الخوض في الرّومانسية وبحْرها، خوّضت لُجّته عودة الممرّضة الحاملة لبقايا كتيبه المُرافق لوُريقاتٍ عتيقة. إنّها مُذكرات فارتي، التي آثرت البقاء معه في عتْمةِ سجنه.

وقبل حديث نفسه المعهود، حمل بكفّيه الكتيب المُزدان بتلك الوريقات، وعاوده الحنين بمُجرّد إبصارها أن يُلْقي نظرة ولو على سطر، لكنّه واصل قراءة:

[- لا زلت أتساءل!؟:

إلى أين غادر - يا ترى - لامارتين، أين راحت به الخُطى فجأةً، أتُراهُ سار على خُطى الأمير العربي الذي ألقى تحيّة الوداع، قبل ركوب البحر إلى وجهته... ولكن سؤالٌ دائمُ الورود إليّ بمُجرّد دخول الأمير و... (وإذ بكلمة لا يستطيع لامير قراءتها من فرط سيلان الحبر) إلى كنيستنا. لم يرتبك - وهو من دين آخر - ولم نلحظه يستشعر الفارق حين دخوله دار المسيح!؟...].

- تُرى بماذا شعر وهو يدخُل بيت الرّب، هذه الكنيسة التي شغلت فارتي، وهي تكتُبُ في زواياها يومياتها. أنفاسُ وزوايا هذه الكنيسة تُراها ذاتها من آوت روان...

روان التي آثرت أنْ تُخفي هويتها عن الجميع في Esbjerg، تُخفيها عن رُعاة الكنيسة، قرّرتْ ذلك لألا تحْتك بأحد.

لقد قرّرت أنْ تبقى، إنْ أُتيح لها طول العمر - لفرط ما جرى لها - في الدّار التي أوت الأرواح لا الأجساد، خادِمةً مُطيعة، مثلما كانت في أمبواز، حينما كانت في ذمّة الحكومة الفرنسية، رقم قلّة ذات اليد وفقرها.

حكتْ للأب أندرسون جُلّ ما حلّ بها بادئة بإظهار براعتها في نُطق الفرنسية وكتابتها، راغبةً - بعد قُدّاس أحد الآحاد - أنْ يُبقي حديثهما سراً، وتزيد في إلحاحها بعد كل جملة أن يُبْقها مع الأخوات وهي تستجدي راغبة في ذلك.

فما كان من الأب - رغم ما يدّخره من ريبة يجهل سرّها - إلاّ أن رضخ للرّجاء، مُوافقاً على بقائها تحت رعاية أولقا، مُهدياً إليها بعد حين لباس الرّاهبات وهو يقول:

- خُذي هذا الوشاح، واحرصي على صلواتنا، كباقي الأخوات.

ليستدرك قبل إنهاء الحديث:

-... وسوف أترك لك نسخاً من مكتبتي، لتلك التّرانيم الفرنسية التي أحضرها بيتر، لتُترجمي ما استطعتِ... (ليُضيف مُجدّداً بنبرة المزاح).. وأظن أنّك لم تفقدي بعد سحر الدّانماركية!

لم تجد بحياءٍ ممزوجٍ بشذرات ذاكرة الانتقام إلاّ القول، بلُغةٍ دانمركية، ورثت كتابتها من الأب ونُطقها من الأمّ، التي حفظت اللّغة وأعباءها:

- أمرك أبتي!

سارت السّويعاتُ سريعاً.. وفي اللّيلة التّالية، التقت روان بـ بيتر قُرب مكتب الأب وجها لوجه، ولم تعرفه إلاّ من خلال حديثه لها مُباشرةً، ودون سابق معرفة - رغم أن الأب منع التقاء الجنسين، على الأقل في حضرته - فاشتعلت في قلْبها النيران النّائمة لرؤية بيتر، الذي ذكّرها بالأمير - دون أن تدري كيف- نيران الحنق على الأمير العربي وما خلّفه صدّه في قلْبِها. رُبّما ذكّرها بيتر بماضي فرنسا.. فرنسا التي احتضنت في قرن ونصف لاحقين، أمثال الأمير وكثيراً من أحفاده، وإنْ عانى كثرتهم من أعباءٍ كتلك التي وخزت قلب لامير.

لأمير الذي غادر مُستشفى "القمّة الثلجية"، مُتوجّهاً إلى أوّل محل عرفه في شومبيري.

خرج لامير نحو السيد عزيز، الذي وجده كعادته في محلّه الصغير، مع بعض الزّبائن. وقبل أيّ حديث، تبادل الرجلان نظرات الحنين، وكأنّها تختزل الأسئلة العديدة الدّفينة في وجدان كلاًّ منهما.

أعطى عزيز أحد الزبائن بعض عُلب السجائر، التي سيمْنع استهلاكها في المقاهي والحانات مع حلول الساعات الأولى للعام الجديد المُقْتَرِبْ، مُبادراً بالسّؤال دون أنْ يتوقف عن الحديث بسرعته التي تعوّدها - أوليس بتاجر! :

- لْمَ كلّ هذا الغياب يا لامير؟

واقتربا من بعض، وإذ بعناقهما يُذكّرُ الخاطر والبال بريح الشرق وأنفاسه. وها هو لامير يرد على عزيز، وإذ بالعطر يعود بعزيز إلى لامير الذي يعرفه بحق:

- .. ليس هذا يا صديق بغياب! بقدْر ما هو تغييب. فأنت تدري ما لاقيته!... والواقع (يُضيف لامير بابتسامة بالكاد ارتسمت) أنني لحد السّاعة، لا أعْلم ما جرى ولا كيف جرى؟!

وسكت لامير بُرْهةً وهو يُحدّق في عزيز بعينٍ، كأنّها افتقدته لسنين، ليستطرد قائلاً:

- .. وأرجو ألاّ تُلِح عليْ في السّؤال... آمل نسيان ذلك!

- لا أُريد إزعاجك... ولكن... ما الأمر؟

- هل من جديد عن نور؟

تنهّد عزيز، وكأنّ لسان حاله يقول "لا جديد ولكن؟؟!". وبعد هُنيهة صمت اقترب من لامير قائلاً:

- لا أحدْ من الأصدقاء القلائل هنا يعرف إلى أين ذهب!... فبعد مُشاجرةٍ مع مجموعة من الشّبان بقرب ذلك المقهى، (وهو يُشير إلى حانةٍ بقربه) وتدخّلت الشرطة الجوارية. لا نعرف عنه شيئاً، ومنذ تلك السّاعة لا أثر له... لقد بدأت الأمور تسوء يا لامير!

لم يجد لامير بما يرُدْ. ليَقترب من عزيز من جديد، وقد رأى عينيه تشيران إلى إحدى السيدات بإشارة "نعم"، حين أخذتِ الجريدة وتركت القطعة النّقدية، وبصوت خافت أسرّ له:

- لقد سمِعتُ من ابن عمّته عمر، الذي يؤمُّنا كل جمعة، أنّه غادر (وأشار بيده إلى ذقنه وهو يُديرها حوله، كأنّ لحية كثيفةً تكسوه) نحو المُجاهدين... هكذا سمعت!

لم يتنبّأ لامير - رغم وصف عزيز - بوجهة نور، فقد أضحى الجنوب والشّرق عُمْلةً واحدة. ولم يجد والأسف يعتريه إلاّ العودة إلى نفْسه:

- أتُراك مثلي من ضحايا آلان آخر، ولا أحد يعلم؟

وقطع عزيز عن لامير سؤال نفسه، ليسْأله من جديد:

- ولكن أخبرني! كيف الحال مع حياتك الدّراسية؟

ما إن همّت شفتا لامير بالجواب، حتى قاطعه عزيز بعفويته - مُجدّداً - بسؤالٍ، استدركه بمُجرد سقوط قطعة الأورو من يد إحدى الزبونات، التي ارتسمت على وجهها أعباءُ السّنين:

- كيف حال قطعتي؟ أو بالأحرى قطعة أديبنا؟

تلعثم لامير بشكلٍ لم يره عزيز، قبل أن يُجيبه:

- إنّها في أيدٍ أمينة!

ردّ التّاجر بلسانٍ ذكّرهُ بأصوله وبلُغةٍ عربيةٍ فصيحة تناساها الزّمن وما يحوي الزّمن:

- أيدي " أمينة"!؟ (قاصداً الاسم الأُنثوي)

فابتسم لامير، ليُساير دُعابة صديقه العربي:

- الواقع أنّها في أيدي مارغريت وليست أمينة!

علت الضحكات، ولم يعِ عزيز أن قطعته المُهداة، حقاً، في أيدي مارغريت.

بحيرة الملائكة

28

قرّرت مارغريت، المُتأنّقةُ اليوم بدفء وجمال بسمتها وصفاء وجهها الدّائري الذي لا تكسوه أيّ زينة ولا أيّ ماكياج، الرّحيل مع والدتها... وها هي تُعينها في حزم بعض الأمتعة، التي تُرافقها حزمة كتب أغلبها من أدب الرّحلة لـ جول فارن أو فيكتور هوجو أو حتى إلكسندر دوماً ...

وإذ بهما - وهما على هذا الحال - صامتتان، لا تتبادلان أيَّ حديث. كأنّ جلْستهما بالأمس قطعت كلّ تردّد. فقد اتّفقتا على الذّهاب نحو وجهتهما، دون الخوض في تفاصيل أُخرى... وسيعتبران نفسيهما سائحتين تزوران أرض العُثمانيين بغرض المُتعة والسياحة - رغم أجواء الاستشفاء المُحيطة بهما - لا العلاج والتّداوي... هكذا الاتّفاق.

وها هما في البيت مع الصمت، الذي لا زال مُخيّماً عليهما قبل بداية الرّحلة، والذي أصبح كشيءٍ يتيحُ لهما الاستعداد لها دون نسيان أيّ شيء.

بعد دقائق، همّت السيدتان بالخروج مع اليوم الجديد، ومارغريت تتقدّمُ مُنْتظِرةً خروج الأمّ بالأمتعة الخفيفة، كي تُغْلِق بعدها الباب بإحكام.

ومع بداية خطواتها المُغادرة، عاودتها الأسئلة التي ولدت مع نهاية 2007 بشومبيري.

شومبيري، التي كبرت بين أرصفتها وطُرقاتها، وحتى مكتباتها العديدة رغم صغرها. فبالأمس استسلمت لفكرة فرار نور إلى المجهول وهروبه منها، وذلك بعد أنْ عرّجت على هيينا لتسألها عن اللّوحة قائلةً:

- .. كُنْتُ أودّ، فقط أنْ أُلقي التّحية قبل سفري في الغد... وأسْأل إنْ جدّ جديد (وهي بعينيها تبحثُ ربّما عنها).

وبوداعة وحسٍّ إنسانيٍّ جدّدت الحديث:

- .. لذلك، آمل - حين عودتي - أن أرى ما يوقظ وهج اللّوحة من جديد.

أجابت هيينا باقتضاب، كأنّها لم تشأ إطالة الحديث:

- أتمنّى لك رحلةً مُمتعة، وحين عودتك - التي آملها قريبة - سأحاول ترميم أجزائها المُتضرّرة... وهي بالمناسبة كثيرةٌ جداً...

لتُجدّد بنبرة الاستئناس، متناسية ردّ فعل مارغريت عن حديثها:

- ولكن، لِمَ لا تصبرين حتى نهاية أعياد الميلاد؟!

لتُداعبها بنَبْرةٍ أُخرى:

- أم أنّك آثرتِ الاحتفال بمكانٍ أكثر دفئا من شومبيري؟

- لقد قرّرنا أنا وأُمّي الاحتفال خارج فرنسا... والواقع أنّه لم يبق غير ثلاثة أيّام. عموماً لك الشكر الجزيل.

خرجت مارغريت مُغادرةً، ولم يبق لها من توديعٍ غير لامير، الذي فاجأها حين مهاتفتها، أنّه بانتظارها - والوالدة - ليترافقا، كلٌّ إلى وُجهته. وقد استشعرت وهي تسمعه إلحاحه الدّاخلي، بصوتٍ غادرته نبرة الهدوء منذ مُدّة قائلاً:

- .. الواقع أنني لا أعرف بالضّبط وجهتي ولكن، سأراك في الغد مع حافلة الصّباح!؟

في ركن المحطّة المُتّجهة حافلاتها إلى مدينة "ليون" الأنيقة الجميلة، والمُضاءة مع أوّل ساعات الفجر الشتائية المُظلمة، التقت مارغريت والأم نادية بـ لامير، الذي يبدو عليه الانتظار لبعض الوقت، والمُرتدِ لذات لباسه الأنيق، حين شاهدته مع نور الغائب عنهما في المكتبة الجامعية ذات صباح، لتبْدأه بالسّؤال، بعد إهداء التّحية:

- لقد أتيت مُبكراً على ما يبدو!؟

ردّ عليها التّحية، مُهدياً لها وللأم التي أثقلها المرض بأحسن منها، ليستدير إلى مارغريت التي بالكاد تبتعد مترين عنه مجيباً:

- تعرفين أنّ عطلتنا الجامعية هذه السنة بدأت باكراً، فآثرتُ أنْ أستيقظ مثلها، علّني أستطيع التّثبت من وجهتي!

وواصل بشيءٍ من الأُلفة:

- حتى غرفتي الصغيرة ما عادت تحتمل أنفاسي التي ضاقت لأيّام، وقلبي، الآن، وعقلي كلاهما في نقاهة.

أجابته، وأجواء الصداقة تغلبها، كأنّها استوحت من حديثه السؤال:

- قُل لي صدقاً.. هل اخترت إلى أين الرّحيل؟ ولو أنّنا سنكون في حافلة واحدة!

وعقّبت من جديد:

- باريس - ككل أيام السّنة - متأنّقة!

توقف لامير ومارغريت كذلك، وواصلا الحديث سوياً، وقد قتلا الصمتُ الذي خيّم مرّةً أُخرى، ليستمرّا في الحديث والسير مُجدّدا. غير أنّ الأم تدخلت في هذا الجوّ الشّبابي وكأنّهما تناساها وتناسيا أنّهما في محطّة، لتقول:

- هيا لنرْكب! لقد اقتربت الحافلة... أمّ أنّ حديثكما سيوقفنا طويلاً؟!

استجاب الشّباب لحديث الأم، وحملت مارغريت الزّاد مُستعينةً بـ لامير، الذي لا تُثْقله أمْتِعةٌ عدا صفحاته تلك، والمحفوظة عنده، وكُلّه أمل أن تكون له العزّاء في الطّريق على قهر الأيّام الماضية.

لقد اختار لامير فعلاً أن يزور باريس، وإنْ أخفى رغبة زيارته... فمتحف اللّوفر يأسره كما أسرَ سواه، وما سمع عنه إلاّ وزاد إعجابه الآسر.. فاللّوفر يُذكّره بكلّ الدّنيا، أما المذكرات المخطوطة، التي يحفظها قلبه وتحْملها يداه ما عادت تُذكّره بـ فيرتي فحسب، بل حتى بـ آلان، الذي غيّبه مرضٌ، كانت دعوات لامير له ذلك الورم الذي هيمن عليه... إنّه "الانهيار الطارئ" أو هكذا أسماه محاميه، نقلاً عن طبيب العون.

ركب ثلاثتهم الحافلة، التي لا تعُجّ بالكثير، وبمُجرد أنْ وطئت الأقدام أسفل الأماكن، حتى شعر لامير أن مثل هذه الرّحلة شيءٌ كان ينْقُصه، ينقُصه في ذخيرة حياته الفرنسية.

وبدأ بسؤال نفسه "- كيف بطالب - بالكاد يعرف الدّراسة، ولا يهتم بالمأوى، وأحياناً ينسى قوت الحياة - لا يكاد يعرف باريس إلاّ بهْرجةً وأسماء تعرفها الدّنيا كلّها...

لكنّه كان يعتقد أن كل مُدن فرنسا، التي تُقارب الأربعة آلاف، مُختَزَلةً في باريس. باريس ما هي عند لامير إلاّ اسمٌ ساحر، تحتفي به القلوب العاشقة قبل عيونها المُبْصرة!

ليُصغي إلى الصوت الرقيق:

- ألا تجْلس؟

وكأنّي به استيقظ من عبءٍ كبير.. فصوتُ مارغريت قطع عنه أسئلةً رافقت وحدته، ولكنّها واصلت:

- لامير!

وكأنّها أعطت الانطباع بتلك الأريحية والدّعة، التي كادت تأفل في سماء لامير المُظلمة:

- ألا تُخبرني بما جرى؟

لم يجد لامير وهو يختزل كثيراً من التّفاصيل ممّا وقعْ - وتعهّد ألاّ يبوح بذلك حتى لنفسه ولو همساً - إلاّ أنْ يُخبر مارغريت بقصّته، وإنْ مبْتورة، لأنّها شاركت في نسج دفء نهايتها السّارة - دون أن تدري .

وبدأ لامير، في أوّل لحظات الرّحلة، وأمام الأم نادية بسرد ما جرى، ومارغريت، التي لم يبق فيها شيءٌ إلاّ عيونها المُتطلّعة إلى حديثه، وهي تتوق لأنْ تسبح في أعماق نفسه، إرضاءً لذلك الرّيب الذي يُراودها، والذي ينبِّئُها أنّ لامير يحجبُ بعض التّفاصيل عنْها، والتي اعْتَقدَ أنّها تفوق إدراك الكثير من البشر.

وقبل الخوض في آخر لحظات تجربته، التي دامت لأيّام، قاطعته مارغريت دون كسر سيل حديثه العذب، بسؤال في قالب الاسترسال:

- أتعْرف يا لامير؟! كُلّما فكّرتُ في هذه التّجربة التي تتحدّثُ عنها، والتي لم تدُم أكثر من أُسْبوعين، وما عانَيْته، إلاّ ويجول بخاطري سؤالٌ واستفهام.

- ما هو يا تُرى؟

- لِمَ كلّ هذا العِداء؟

وقبل أنْ يتفوّه لامير ببنت شفا، سابقته الأمّ - وقد داعب النّوم طريق الرّحيل الذي تعوّده معها - كأنّها رأت عزوف لامير وهو ينظُر عبر نافذة الحافلة، عن قول شيء:

- إنْ العِداءَ يا ابنتي، شيءٌ أبدي ولن يعرف الإنسان له محطّةً. فهو في ذواتنا، وهو في أنفُسنا أشدّ وقعاً منه بين البشر. فليُصلِحْ كُلّ منّا ذاته، وسترين أنّ العِداء الذي تسألين عن تفشّيه لن يوجد له اسم...

التفت لامير إلى مارغريت، وقد هزّ رأسه موافقاً، ليُجدّد بالقول:

- بلى، ولكن - وأصدُقك القول - أنّ السّؤال الذي جال بخاطري حقّاً هو عنك.

لتسائله عبر نظراتها..

- نعم عنك. (ليقول بكل هدوء): لِمَ أقْحَمْتِ نفسك في قضيّةٍ تراءت لبعض النّاس - وهُم كُثر - أنّها غير ذات قيمة؟!

- لم أفعَلْ هذا من أجلك.. أعني لشخصك أنت، بل هو التزامٌ أمام هذا الوطن الذي علّمني الحرية، التي مات لأجلها من تعرف وأعرف... لأنّ الفرنسيين يعشقون - مثل كلّ الدّنيا - الحُرية..

الحرية، هذه الكلمة التي توقْفَ عنْدها لامير، وتوقْفَ عندها من قبله من سكنَ في قلبه "الأمير عبد القادر"، وقبل أنْ يغوص مرّة أخرى في حواره الدّاخلي، آثرت مارغريت أن تقطع عليه ذلك مُجدّداً، ولكنّها أصبحت - ربّما – مثله، تأملُ أن تغوصَ في دواخلها، وقد جال في هذه الدّواخل أنْ تُحدّث لامير عن لوحة نور، لكنّها تراجعت، وكيف تفعل واللّوحة ليست بيدها. وراحت من وراء نافذة الحافلة - التي تُداعبها قطرات الماء العالقة بخارجها - المُسرعة، تُفكّر في اللّوحة وفي هيينا.

بحيرة الملائكة

29

هيينا الجالسة أمام جوليان في مطعمهما المُفضّل، والذي جمعهما لأوّل مرة في 7/ 7/ 2007 حينما دخلت يومها مع "آلان بوري" عون الشّرطة، الذي غاب عن صراع الحياة بمرضه، والذي عرّفهما ببعض...

جمعت هيينا أصابعها وهي تتّكئ بذراعها الأيسر على مسند الكرسي الفاخر قائلةً:

- أتذْكُر أوّل لقاء؟

رد بشيءٍ من البرودة مُتناسياً دوافع السّؤال:

- الذي أعرفه أنّه لديك... سبقٌ صحفي!

- أمُستعْجلٌ لهذه الدّرجة؟

- لا ولكن...

- أنسيت أنّها دعوة عشاء؟

- شكراً، ولكن ما لم أنسه أنّك قُلْت:.. سأُخبرك حين نلِتقي.. وها نحن!

استشعرت هيينا فتور جوليان، الذي تبدّى منذ أيام، ولم يمنعها هذا من القول:

- إذن أخبر سيدك... أنّ لها مُقابل!

- مُقابل ماذا؟

- لوحة منذ القرن السّادس عشر، بإمضاءٍ ظاهر، ما ترى مُقابلها؟

- وما الميزة؟... فليست كلّ لوحة قيّمة؟

- ما الميزة؟!... إنّ صاحبها أول منْ أدرك حقيقة هؤلاء الإرهابيين!!!

وبدأت ضحكاتٌ مُفتعلةٌ تخرجُ من فيه جوليان وهو يقول مُتسائلاً بسخرية:

- وكيفَ عرفْتِ؟ هل أخبرك صاحبها؟!

لتُقرّب منه الصّورة التي التقطتْها للّوحة. صورة لرجلٍ بيده سِبْحة، وبالأُخرى مِدِيةٌ صغيرة معْقوفة الرّأس تقطر دماً، وكأنّ القطرات بشكل الثّالوث..

قدّم جوليان عيناه ليتثبّت من الصورة، وبعد أنْ تطلّعَ إليها، فكّر ملياً، قائلاً في نفسه الأمّارة بالسّوء:"ولِمَ لا؟... لم يبْقَ على إدارة الجريدة إلاّ خُطوة، وهذه تبدو فرصةً سانحة، والأجواء مُتاحةٌ لمبيعات أكثر... فاللّوحة عتيقة - وهذه قيمةٌ تاريخية ليست بالهيّنة - وشكل الرّجل العربيّ العاري مُثيرٌ بحق".

وأضاف في ذات نفسه:"نشرها مُغامرة!... ولكنّها ستسيل الحبر و... المال أكثر".

أشارتْ هيينا بعد هُنيهاتِ الشّرود، التي طغت على رفيقها بأصابعها الرّقيقة قائلةً:

- آيْ! أتسمعُني جوليان؟

وكأنّه استفاق ليُجيبها:

- اتّفقْنا.

فأجابته مُستغربةً:

- اتّفَقْنا!؟... على ماذا اتّفقْنا؟

- على أخذ اللّوحة مُقابل ما تُريدين من مال.

سكتتِ الألسنة، وراحت الخواطر - كلٌ على حدة - تُفكِّرُ في الآتي، والأجواء في خارج المطعم بدأت تتلبّد.

تلبّدت السّماء في شومبيري، وهي ترسل بأمطارها إلى الطّريق الرابط بينها وبين "ليون".. فالقلوب المُستلْقية في المقاعد ما زالت تحكي، وتجولُ بلسان الدّعة والهدوء. هدوءٌ دعا مارغريت أنْ تُخْرِجَ علبة السجائر، وقبل أنْ تسحب قدّاحتها الذّهبية، نظر لامير إليها مُلقياً بالسّؤال:

- ألم تُقلعي بعد؟

- سأُرْغَمُ على ذلك!

- ومن سيرْغِمُكْ؟

- ألمْ تسمع؟!... لم تبق إلاّ أربعة أيام أو أقل!

- على ماذا؟

- على منع أمثالي من ارتشاف قدحِهم الصباحي رُفْقة الدّخان - أو المسائي - في أركان المقاهي التي اعتادت سُحب الأسى.

لتصمت، كأنّ ذلك الأسى الذي تتحدّث عنه ارتسم على محيّاها. لتُجدّد الحديث:

-.. والحانات أيضاً!؟؟

ليُجيبها لامير مازحاً:

- تمتّعي إذاً بآخر الأنفاس!

لتتنهّد بالقول (مُبصرة إلى أُمّها المُلقاة):

- قضى التّدخين على رئتها، وما زِلْتُ...

واضطربت يدها، قبيل أنْ تُخْرِجَ القدّاحة من حقيبتها. لتسقط منها ومعها اسطوانة موسيقية كُتِب عليه "ج.ج". وما كادت تطاردهما بعينيها، حتى ألْقى لامير بتلك اليد التي عانت البرد، مُعيداً لها الأسطوانة التي رحلت بعيداً عن مقْعدها، وهو يُسائلها:

- أتُحبّين فرقة الفلامنكو هذه؟

- أتعْرفها؟

- نعم.

- إنّها فرقةٌ أحبّ سماعها، وإيقاع عزف قيثارتها...

وإذ بذكريات لامير تعود به إلى أيّام الصبا، ببلْدته الأُم، وبألحان الشرق الشجية، التي لطالما رافقت أُذنيه في البيت وبعض المقاهي. أيامٌ مُفْعمةٌ بأنسام المُوشحات.

ليعود إلى مارغريت من جديد:

- أتعْرفين؟! يقولون إن معزوفات الفلامنكو أندلسية عربية في الأصل.

- أحقاً؟

ليُضيف، ومارغريت كأنّها تستمع لهذه المعلومات لأوّل مرة:

- .. وكانت تسمى - ولا زالت - الموشحات الأندلسية.

لتُجيبه، بعد أن تذوّقت الألحان من حديثه:

- أتعرف، أتوق لأنْ اسْمع هذه الألحان، ولا أُخفيك أنّه هزّني - في حفلةٍ صيفية - صوتُ إحدى العازفات من أصول مغاربية واسمها (عيدة). وكم أتوق أنْ أسْمع الصوتَ العربيّ الذي يشدو بهذه الألحان.

نظر لامير إليها مُجدّداً ليفاجئها:

- أتُريدين ذلك حقّاً؟

فأومأتْ برأسها لكأنّها - غير مُصدّقة - تقول:نعم.

وبنبرة المُزاح والعفوية قال:

اسمعي إذن هذا الموشّح الذي لا أعرف له تاريخاً ولا قائلاً.

وبدأ بصوتٍ دافئٍ، ينْبُع صدقا يُهدي لها نسائم الشّرق، بصوت عربيّ ولحنٍ أندلسي:

أيّها السّاقي أعِرْني مَسْمعاً   أيـنَ آسي كيْ يُداوي وِحْدَتي

كم بكيتُ اللّيلَ أرْجو طيْفَهُ
ويْحَ قلْبي كيفَ يَلْقى حَتْفه
كالهوى أضْحَتْ عيونٌ سيفَهُ

قدْ أدَرْتَ الكأسَ تشدو مُبْدِعاً   أيْنَ منّي كأسُ تلْكَ الجَنةّ

هل تُراني الآنَ أحيا أرْقُبُكْ
أمْ تُراهُ الدّهرُ عنّي يَحْجُبُكْ
إنّ قلبي كالقَرينِ يَصْحَبُكْ

لِهَوَى كالعَيْنِ تغْدو مَنْبَعاً   فاسْقِني منّي لتشفَى عِلّتي

يا مُذيبِي إنّ ناري تتّقِدْ
إنّ روحي من ضعي تبْتعِدْ
كيفَ أُشْفَى أيّ شيءٍ أسترِدْ

قد مضَتْ تلك اللّيالي كالسّنا   منْ يُعيدُ العُمْرَ لي يا غِبْطَتي

وفي رحلة التواشيح هذه، أُغمِضتِ عيون مارغريت، لكأنّها تستريح من إرهاق السير حينا، وأمر مرض أُمّها. ليتوقف لامير معها، لتستريح الأجفانُ لدقائق.

لم تسترح الأبدان طويلاً، حتى وجدت نفسها أمام محطّة الوقوف لـ "ليون".

سرت نسماتُ ليون لتملأ رئات الزّوار: العليلة بعضها، كأنّ رياح الاستقبال التي داعبت ستائر نوافذها المصنوعة بأيدي عُمّال القرون الماضية ترحّب بقلوب مُتعدّدة الهويات.

وقبل أنْ تطأ الأقدام الأرض، أخذت مارغريت لامير على حدة، وتجرّأت بإخباره بشيءٍ كانت تحفظه، لتُخْرِجَ من جيب سروال الجينز المُغطّى بمعطف أسمرٍ طويل قطعة اللُّجين تلك، وكأنّها أعادت نضارتها من جديد، لتدنو منه قائلةً:

- تفضّل لامير، هذه قطْعتك التي أحفظها بعد دخولك المستشفى. وآن أوان إعطائها لك!

وقبل أن تواصل الحديث، ذكّرته أنّها منذ وضعتها في كيسها الجلدي الأسود الصغير، والذي يختزن نقودها المعدنية الأوربية، لم تنظر إليها خشية إغرائها لها.

ليُجيبها مُختزناً العرفان:

- لا أرى أنّها ستحظى بدفءٍ أكبر من دفئك. لذلك احتفظي بها، وهي ذكرى - أخالها طيّبة - منّي.

وكأنّ مارغريت تُدرك في أعماقها، بحدسها الإنساني.. تُدْرك رد لامير، لتُخرج من جيب معطفها الدّاخلي عُلبةً صغيرة ذهبيّة اللّون، بعطرها الأنثوي البرء، لتقول له:

- لن تكون أكثر كرماً، وحفظاً للذكريات منّي.. أرجو، من أعماق قلبي، أن تُبْقي هذه العُلبة معك.

حملها لامير بيد مُرتعشة، وقبل فتْحها قال بشيءٍ من الهدوء المُصطنع، فضحتْهُ نبْرته:

- أشكرك... أشكرك على إحساسك النّبيل تُجاهي و...

وقبل أن يضيف، أجابته خطواته الرّاحلة، ليسكت مودّعاً أهل مدينته الفرنسية، ومنطلقاً هو كذلك إلى محطّته التّالية القريبة من هذه، ليسحب التّذكرة، ومعها يمحو هذا الفراق السّريع.

مع خطواته، جالت بفكره صور الدّنيا العديدة، صور الحياة التي ذكرّته بها وفود المسافرين من حوله، ليقف عند رصيف السكة الحديدية، غير عابئٍ بأصوات المكان.. وقبل أن يسبح أكثر، توقف القطار، ليطلُب من المُسافرين التّرجل صعوداً إلى القطار، في هذه المحطّة التي لا تضاهيها - فيما يرى لامير - إلاّ بلّورات محطّة برلين الرئيسية، فخر الألمان.

صعد لامير مُتذكّراً ما قالت مارغريت، وهي تهمّ بوداعه والخطوات تهرُب بها:

- أتمنّى لك رحلةً طيّبة، وسأرسل لك الجديد إن أتيح لي، وأرجو أنْ تحفظ كل هنيهاتنا السّعيدة - وإن كانت قليلة - ولا تستذكرها مع هذه العلبة البسيطة فحسب. لا أشترط عليك أن تحفظها للأبد، ولكن احتفظ بلحظاتنا!

لم يدرك لامير بعد أنّ الفرنسيات الهادئات قد غادرن نحو الجنوب، وتركْنه يُفكّر فيما سيحفل به الشمال. لقد بدأت رحلة أخرى إلى الشّمال.

تُرى شماله سيكون مثل ذاك، الذي أعيى ابنة الشمال روان؟!..

بحيرة الملائكة

30

ها هي الأيّام القليلة تمُر، ومع بزوغ عامٍ جديد بأيّام، جاء إلى الأب أندرسون ما كان يخشاه من خبر، أسرت له به أولقا، حينما اقتربت منه في فجر يناير لتقول:

- سيدي، لا أثر لـ روان منذ الأمس!

...روان التي تماثلت للشفاء التّام، واستعادت بشاشة القلب وراحة الجسد، هذا الجسد الذي يستره حجاب الرّاهبات. حجابُ بدأ يُرشُّ ببُقعٍ أتت معها روان من براثن سواحل آيسبيرغ، بعد أن وطّدت علاقتها بـ بيتر، وكأن إخفاء حبّها شيءٌ يُطاردها منذ وعت الحب، حتى صارا أقرب إلى الزوجين في دارٍ لا زواج فيها ولا نزوات.

سكت الأبُ بُرهة من الزّمن، وهو يُحدّثُ ذاته:

"- كم غالبْتَ نفسك يا أندرسون، حينما وافقت على بقائها...

لتقطع أولقا عليه لوم نفسه بلومٍ خفيٍ آخر:

- ولا بيتر سيدي!

ليعود الأب إلى نفسه مجدداً:

"- أمَا كنت تدري أنّ من شبّ على شيءٍ شاب عليه... ها هي مثل بيتر إغراءٌ فلِقاء... وما حياتهما لو علما إلاّ فناء... والحياةُ الحقّة دوام وبقاء!

ولم يجد ليُعقّب على أولقا التي مازالت تنظُر إليه إلاّ:

- ليذهب من يشاء إلى الدّار التي يرغب. لا حاجة لبيت الرّب بناكثٍ للعهد، راغبٍ في اللّحد.

وكأنّه أقفل الحديث عن شخصين بدأت حياتهما - دون أن يدريا - نحو المجهول، نحو معاناة بشرية أُخرى، وذكّرته ما آلت إليه روان رُفقة بيتر، ببداية

تصفّحه لرسائل المجهولين، التي كانت تردُ إلى الكنيسة من القلة التي كانت تقرأ، من شُخوصٍ وعادات وحياة وممات...

ولم يرشح في ذهنه من الرّسالة المؤرخة بـ نيسان 1848 والحاملة لرسالةٍ صغيرة أُخرى إلاّ:" *... اعتذرُلك، يا دُرّة القلب، عمّا جرى بالأمس، ولكنّك بعد التفكير، ستدْركين أنّ ما رأيْتِه ليس إلا الحقيقة، فما شقيقتُك إلاّ نزوة عشْق ستفْنى، مثلما فنيت لحظاتنا، فلا داعي لذلك اللّوم و...*

لتقول صاحبة الرّسالة:"... *هذا ما ختم به يا أبتي، بعدما أمست أحشائي مقبرة نزواته..."* .

استيقظ الأبُ من ذكريات الكنيسة ورسائل المؤمنين، وأولقا ما تزال تُحدّق به، ليسألها، كأن استفاقته عاودت إحياء ذاكرته:

- هل الجميع هنا؟

سكتت أولقا للحظة وهي لا تكاد تعرف الجواب، لأن بعض رٌعاة الكنيسة خرج، والبعض الآخر كلٌ في انشغاله، فلا تدريس اليوم، فالمعني بإلقاء الدّرس كل أسبوع في عطلة قسرية، إنّه بيتر.. نعم بيتر.

لتُجيبه أولقا بما لديها:

- الكثير منهم هنا سيدي!

وبلهجةٍ فيها من الصّرامة الشيءُ الكثير، طالبها باستدعائهم، قائلاً:

- إنّي أنْتظرهم في مكتبي!

ذهبت أولقا ولسان حالها يقول:بمَ يُفكرُ الأب يا تُرى؟

انتظر الأخوة وبعض الأخوات خارج مكتب الأب، الذي بدأ باستدعائهم الواحد تلو الآخر، ومع طول حديثه معهم، اقتربت ساعة الزّوال. ورغم التّعب الذي كبّله، ردّ على سؤال أولقا، التي دخلت عليه لترجوه الرّاحة بعد جُهده المُضني:

- لن أرتاح يا أولقا حتى أعرف ما سرّهما؟!

لتجيبه:

- لتدع الباقي إلى ساعات الغد... ولك أن تستريح!

أجابها الأبُ مُكبّلاً بالآهات:

- الرّاحة؟ أيّ راحة يا أولقا؟

وبلهجةٍ صارمة حادّة عصبية:

- لن أستريح حتى أعرف ما جرى!

ليأمُر بدخول التّالي، مُستكملاً البحث عمّا غمض عنه.

وبعد هنيهات من خروج الأخ "كراهيل" من مكتب الأب، سُمِعَتْ مع الهدوء السّائد بين جدران الكنيسة صيحات أولقا المُستنْجِدة:

- النّجْدة يا إخواني!... لقد سقط الأب أندرسون!

سقط الأب، ولم يدر أحدٌ ممّن كانوا واقفين بقرب المكتب سبب ذلك، أهو التّعب أم تراه شيئاً آخر!؟ التّعب شيءٌ أزلي، ولن يسلم منه بشر. ولن يسلم منه لامير، والذي بالكاد بدأ التّفكير - يؤنسه - بعد تشتتِ فكره بين الخيال والواقع، بين دفء وسائل النّقل وبرودة ما حوله من أركان المدنية.

لم يجد لامير نفسه إلاّ وهو في غرفة القطار السّريع، الرّاحل به إلى أضواء العاصمة، وليس بين يديه إلاّ تلك المخطوطة المليئة بعبق الحياة، عبقٌ لماضٍ أصبح هاجس لامير وصديقه... وبدأت الذكريات تطوفُ في خاطره، وأعاد الحنين إليه أيّام الصبا وبدايات الشباب، ولم يزل يُراوده خيال مارغريت ووالدتها وهما يُغادرانه، تماماً كما غادره الأمير رضا وتركه وحيداً في عالم أسوأ ما فيه أنّه واقع!

ولم يقطع عنه تجواله عبر خيط الذّكريات المشدود بالأيّام إلاّ مُلامسته لما بداخل علبة مارغريت المُهداة إليه، والتي بدأ بتحريكها بين أنامله، كأنّه يتحسّسها مثل تحسّس قطعة اللُّجين تلك، مُستذْكراً الأحداث المتوالية. فحرّكت هذه الحُلي الذّهبية المُزدانة بالصليب الرقيق أعماقه، وهو يُبْصرها مُبْعداً عيناه عن نافذة القطار، الذي يُرسلُ مع كل أصواته المواجهة للهواء البارد صدى التّتابع، الذي يُرافق الأُذن والعين آناء السفر. هذا السفر الذي يزداد دفئاً برغم البرد الذي يزداد تخييماً على الجو مع كل مترٍ يأخُذه إلى الشمال... إلى باريس.

باريس التي تنتظر رؤيته بعد سويعات، سوف لن يراها وحده. فها هي سيدة، بذات ملامح فارتي - أو كما تخيّلها لامير - تدنو منه، ليفسح لها مجال الجلوس. ومع دنوِّها لا تخلو شفتيها من التّحية:

- صباح الخير، سيدي!

- صباح الخير أُختاه.

ومع شخصيّة حيوية مليئة بالحياة، استسلم لامير لحديثها المتوصل - دون سابق معرفة، والذي لم يعرف دواعي أريحيته وعفويته حين قالت:

- بالأمس وقعت أحداث مؤسفة بـ "ليون".

لتواصل السرد، كأنّ أسئلة لامير التي لم يبُحْ بها أوقفتها:

-... فآثرت أن أُغير الجو، وأُسافر إلى أُختي بضواحي باريس، علّني أبْتعِدُ عن الضوضاء المُفتعلة.

... وكأنّ كلمة" مُفْتعلة" أغرت لامير ليسْأل:

- ماذا جرى أُختاه في "ليون"؟

قبل أن تجيبه، استدارت بعد ترتيب حقيبتها الصّغيرة، وهي تشبه باستدارتها أُخت لامير الكبرى. وإذ بها كذلك سألتهُ، كأنّها بالفعل أُخته الكبرى بدُعابتها الأُسرية تسأله:

- هل أستطيع أن أعرف مع من أتكلّم؟!

لتُضيف زارعة التّلطف في قلب لامير:

- عُذراً اسمي ماري.

- لامير، لامير آدم أُختاه.

لتسأله، كأنّها استغربت الاسم:

- هل هو اسمٌ عربي؟

- إنّه مزيج بين العربي واللاتيني...

لم تُطل السّؤال العابر هذا، لتجِبه:

- عموماً، كل ما في الأمر سيد لامير أن مجموعة من الشّبان، الثائرين على منع بيع الكحول لأقل من 18 سنة اعتدوا على الأب فارجان، وهو أب كنيسة ليون الكبيرة، ودنسوا قداسة الكنيسة بالنّجاسة، وقد ظنّوا أن القرار بإيعازٍ منه...

قبل أنْ يتفوّه لامير ببنت شفة، رنّ هاتفه، ليجد على الخط - على غير العادة ودون سابق إنذار- السيد عزيز، ليُعْلمه أنْ أحدهم حمل إليه رسالة.

مع إغلاق هاتفه، سكت لامير ومعه الأخت ماري، وكأنّ شيئاً ما كبّل الأفواه، ولم يبق في الصدى المُحيط بهما إلاّ أصوات عربات القطار، التي تلْتهم السكّة بنيران السير السريع، وسط مُحيطٍ من البرد القارص.

بحيرة الملائكة

31

وقف لامير، مُبصراً ما حوله عبر نوافذ القطار المتمهل نحو الوقوف، وكأنّه يستشعر وهو في وسط معطفه الدّافئ، أنّ أنفاسه صعدت لتنْظُر إليه من الأعلى، وهو مُحاطٌ بالقاطرات الجاثمة في محطّة باريس الكبرى، والمُحاطة مثله بأناسٍ لا حصر لهم من رجال ونساء، صغاراً وكباراً من أجناس شتى.

أمّا حوله فقد غادره - على ما يبدو - طيف الأخت ماري دون عودة، ولم يترك غير حديثها العالق مرّة أُخرى بذاكرته الحزينة.

لقد توقف القطار.. ليتوقف بعدها لامير عند أول مكتبة، "المكتبة الوطنية الفرنسية"، مُنطلقاً منها بعد لحظةٍ من رؤيتها والوقوف بقربها واقتناء شيءٍ منها، نحو ما يرغب.. هذه الرّغبة التي عزّزتها خريطة باريس الصغيرة، ليُحدّد لنفسه بدايةً التّوجه إلى المتحف الفرنسي الوطني، ومنها إلى أوبرا الباستيل، عابرا نهر السين السّاحر، والذي تذكّر بمُجرد استنشاق نسيمه بحيرة "بورجي"، لن ينسيه في "بورجي" وسحرها حتى السين.. ليعبر طريق "ريفولي"، فمباشرة إلى اللّوفر.

اللّوفر، الذي وجد حول ساحته - التي يتوسطها شيءٌ بلّوري من ذكرى الفراعنة - عدداً لا يكاد يُحصى من البشر، مُعتقداً أن ناس باريس ينتظرونه مثلما كانت العيون ترمقه عندما كان مُتّجها إلى كُشك عزيز في شومبيري، ولكن صدق أهل الأهرام الحجرية: "قبل أن تدخل مصر انظر لمرآتك، ما تراه... منه الآلاف" وصدق من هم في ضيافتهم!!

في وسط هذه الزّحمة بالنّاس والأشكال والأيقونات، وحتى حبّات الثلج المُختلطة بقطرات المطر المُستحيية، لم يجد لامير إلاّ الانتظار، غير مُستغربٍ لهذا الحشد من المنْتظرين، بعد أنْ اقتنع أنّه في باريس، وقد ذكّره بعض الشباب الحاملين

لحيواناتهم المُختلفة الأعراق بسوق بلدته الأسبوعي، مع نهاية كلّ أسبوع. أمّا الآن، فنهاية العام بقي عليها ساعات، وأهمُ مرفق يأوي إليه الباريسيون - والذين زاحمهم فيه الكثير - هو اللّوفر.

انتظر لامير على بُعد أمتار من الصرح، الذي غطّت الثلوج - مع هذه الدّقائق- جزءً من حدائقه العديدة. ثلوجٌ رافقت لامير من ليون إلى هنا.. بقي رانياً إلى الهرم الزجاجي الذي يُقابل البوابة، ومن حوله تلك الزّحمة التي لا يعلوها غير بُخار صدورها، غير الشاعرةٍ بالبرد. وفي وسطها التقط لامير صوت إحداهن تُحدّثُ رفيقتها غير عابئة - ككلّ المحيطين بـ لامير - بالأذان التي تُصغي:

- هربتْ من الأهل هناك، وأصبحت أشهر عارضة للأزياء...وصاحبة بيتٍ للمواعدة!!!

- تقصدين دار الدّعارة (وهي تعلو بشفتها السُفلى!)...

لتعلو من أفواههن ضحكات السُخرية، التي لا تشبهها إلاّ ضحكات روان.

لتُضيف الصغرى منهن - وهي تحملُ مُجلّداً صغيراً، يبدو أنّه من الرّوايات التي شغلت أوروبا! ...

- غريبٌ حال هذه الدّنيا المتناقضة!... أحد إخوتها "كاميكاز والآخر في أشهر مرفق ثقافي في باريس... وكلّهم ظهروا من العدم منذ أقل من سنة!!؟

- لا تستغربي (لتتنهّد بصوت خفي)، فها نحن وُلِدْنا في باريس، وتربينا مع بقايا الأهل... وماذا تريْ.. دراسةٌ مُتْعِبة، ومُستقبلٌ مجهول.. والأهم والأسوأ، أنّنا سنبقى أبناء مُهاجِرَيْن...

قبل أن تُتابع أُذنا لامير سماع ما يشغل الفتاتين من نميمة، هبّت الدّنيا للدّخول إلى اللّوفر، الذي فُتِحَتْ أبوابه للتو.

فُتِحت تلك الأبواب التي غلّفها الانتظار، بأيدي رجلين يبدو عليهما - خلف تلك الأناقة الفرنسية التي أغرت لامير - الانضباط والإقدام. وبعد تفتيش الحقائب والمُقتنيات لكلّ واحد، بل حتى اللّباس خضع لشيءٍ من التّفتيش، كيف لا واللّوحة المُعلّقة على أوّل رواق مكتوبٌ عليها بالبند العريض "*لدواعي أمنكم، يُرجى التّعاون أثناء المراقبة. وشكرا للتّفهم*".

حمل لامير أمْتعته التي لا تبلغ الكيلوغرام والتي سبقته في الدّخول، وكان من الأوائل الدّاخلين. لينْطلق مع الإشارة المكتوبة، نحو ما يرغب في رؤيته، جناح "التّاريخ الإسلامي"، ليرى أنّه في الرّواق التالي أمام قاعةٍ تكاد رائحة الوقار تُغطّيها، وقد امتلأت

أو كادت بالزّوار الكُثر، ولم يدر لامير من أيّ بابٍ أتوا، رغم أنّه سبق الكثيرين منهم في الدّخول!

لم يفاجأ لامير وهو يقفُ ناظراً إلى النسخة النّادرة للقرآن، وبجانبه شاب بمثل طوله المُعتدل، وقد كسته سُمرةٌ ذكّرته بالمولّدين، وبجانبه فتاةٌ تكاد تفوقه طولاً وبذات سمرته، وقد دنيا من النسخة التي شُغل عنها لامير. شعر لامير بأنّهما يودان سؤاله، لولا أنّ أحدهم تقدّم من الجميع ليقول:

- هذا هو كتابُ مُحمّد، الشخصية العربية التي آمن بديانتها "المُحمّدية" أغلب العرب.

ودون أن يعي، تدخّل لامير كأنّه يُصحّح لهذا الدّليل:

- سيدي، الذي نراه هو القرآن، وهو كتاب المُسلمين المُقدّس، وليس المُحمديين، وهذا كتابٌ مُنزل عليه، أي على مُحمد وليس هو من كتَبَهُ - وهذا على ما أعتقد ما تذكره الكتب والمصادر التّاريخية.

أجاب الدّليل؛ والامتعاض يكاد يطغى على ستاره الدبلوماسي، الذي كُبّل فمه:

- عموماً، سيدي الكريم، هذه المسألة تبقى مسألة أفكار، فهناك مصادر تقول ما أقول...

تواصل الجدال البسيط بين لامير والدّليل، والزوجان ما زالا يُراقبان ما يجري، والفتاة تبدو الأكثر انتباهاً. ليدعوهما ذلك إلى سؤال لامير - بُعَيد مُغادرة الدّليل لهما - وهو ينظر للمُصحف مُجدّداً:

- آسفة سيدي. اسمي سارة وهذا زوجي رامون! وقد جئنا من الولايات المتحدة في زيارة سياحية لباريس، وقد لفتني شرحك ذاك...

لتُضيف ولأمير لا يزال مصغٍ لحديث سيدة تنطق بفرنسية أنيقة سلسلة:

- فبعد إلحاح زوجي بالقدوم إلى اللّوفر، لم نجد بداً من زيارة جناح التّاريخ الإسلامي!

هزّ لامير رأسه، كأنّه أراد التّعريف بنفسه قائلاً:

- لا داعي للاعتذار سيدتي.

مُقترباً منها ومُصافحاً الزوج الشاب، مُجدّداً الحديث وهو يُسأل الفتاة مُبْتسماً:

- لكن يبدو أنّك تعرفين الفرنسية جيّداً؟

- سيدي أنا فرنسية!

كأنّ الجواب أبعد كثيراً من فضوله، ليواصل دردشته مع الزّوجين:

- رغم أنّ اللّوفر معلم ثقافيٌ بامتياز، إلاّ أن هناك من يجهلون تاريخ الكثير من الشعوب. فهذا الدّليل الذي كان بيننا يكتفي - ومن المفروض ألاّ يكون كذلك - بمدّ المعلومات من مصدرٍ واحد؟!

أجابت السيدة بعد سماع صدى زوجها الأمريكي:

- صدقت... فزوجي أخبرني - مثلاً - أن المدينة التي نسكُن بها سُميت على شخصية عربية هامة وهي El Kader ولحدّ السّاعة يجهل الكثيرون الأمر...

ما كاد لامير يُنْهي الحديث مع الأصدقاء الجُدد المغادرين لتوّهم، حتى انتبه بعد إدخال جيبه الأيمن أن هاتفه قد أُخذ منه، وإذ بالأسف يطغى عليه لرحيل الهاتف، الذي يحمل الكثير من الذكريات لكل من عرفهم في شومبيري... ليستفيق بلهفة وسرعة مُتفقّداً هدية مارغريت، التي اطمئنّ حين دفّأت أنامله وهو يُدخل يده الأخرى.

مارغريت، التي لا تزال بقرب مرفأ **طولون** مُستعدّة للرحيل رفقة الوالدة، وهي تُمسك بيدها المُتْعبة، آملتين في ركوب البحر سريعاً للوصول لوجهتهما الشرقية.

ومع الخطوات التي تأخذ أيّ مُسافر إلى مكان الراحة، عرّجت مارغريت على كشكٍ صغير به شابٌ أصغر، سائلةً إيّاه:

- هل عندك بطاقة تعبئةٍ لهاتفي؟

- بالطّبع عندي سيدتي... فمن لا يبيع البطاقات لا يبيع شيئاً!

وكأنّها استغربت عفويته، لتسأله مُستفهمةً:

- ألهذه الدّرجة تجارة المكالمات رائجة؟!

- لا تُضاهيها - رغم رواجها - إلاّ تجارة الحلال!

- وما الحلال؟

أجابها الشّاب مُستغرباً جهلها:

- ألا تعرفين الحلال سيدتي (وهو يُشير إلى مطعمٍ بالجوار، يكادُ يشابه كشكه الصغير).

مع هذه الإشارة، غادرت مارغريت المحل، وقد أخذها الفضول إلى زيارة "الحلال" هذا. لتجد نفسها تأخذ شطائر، بدا من يُحضّرها في غاية النّظافة، نظافةٌ شجّعتها على تذوّقها.

ودون أنْ تدري، أخذت بشيءٍ منها إلى والدتها، لتعود وفي يدها تلك الشطائر، ناسيةً حجز الأماكن وتخليص التّذاكر.

وصلت سريعاً عبر الشّارع الضيّق الآخذ لفندقها الصغير، وقد وجدت الأم مُستلقية، ونظرت إليها كأنّها تستقرئ الآتي، لتقول لها مُعتذرة على تأخر الحجز:

- جئتك ببعض الأكل، وسآتي بالتّذاكر لاحقاً فقد نسيت إحضارها!

- شكرا بُنيتي، حتى وأنّ الجو بارد! وما نرجوه ألاّ تحدث أيّ طوارئ في المسير! ما كادت الأم تُنْهي حديثها، حتى سُمِع رنين هاتف ابنتها، وكلا منهما مُستغرب – وإنْ بالنّظرات - لتُردّد مارغريت بينها وبين نفسها، قبل أن ترد: "من تُراه يكون؟".

لم تنْقضِ ثانية على تواصل أنشودة الحرية، التي اختارتها مارغريت كرنّة لهاتفها حتى ردّت بالقول:

- ألو! من معي؟

- أهلا آنسة مارغريت أنا الدكتور جولاص.

- أهلاً وسهلاً، هل من جديد دكتور؟

- الواقع... أنّه... يؤسفني أن أخبرك أن الدكتور عدنان سنان قد وافته المنية بحادث سيرٍ مؤسف، وبالتّالي فقد أُلغيت رحلة العلاج. الرّجاء موافاتي في العيادة بمُجرد وصولكم، عذراً مرّة أخرى... بلّغي سلامي للوالدة.

ألقت مارغريت الهاتف ورفقته بقيت واجمة، وشفتاها لا تعرفان ماذا تقولان الآن للأم، التي يبدو أنّها أدركت، لأنّها أصغت إلى ما قالته مارغريت كلمةً كلمة.

لم تجد ماذا تفعل ولا كيف تتصرف، وماذا تقترح على والدتها. تُراهما ستواصلان السفر وتنسيان أمر العلاج... ولكن ما دواعي السفر دون علاج؟؟

صمتت مارغريت لتسافر بأمانيها بعيداً عن هذا المكان، وقبل أن تزداد ولوجاً في آفاق الذكريات، استيقظت عيونها على مشهد والدتها وهي تقول:

- هيّا يا ابنتي، لنرتاح قبل أ ن نعود!؟

تحرّكت السيدتان بقرب غرفتهما بخطى متثاقلة في الخان الصغير، وعلى مقربة من الميناء الذي كاد يأخذهما إلى الغائبين، وكأن المكالمة التي شغلت أصداؤها مارغريت أنستها سماع صوت الموسيقى المُنْبعث من غرفة الاستقبال. لَكأنّ صاحب الفندق الصغير هذا من المفتونين بموسيقى فيفلدي، أو ربما عاد حنينه مع أعياد الميلاد إلى احتفالات تلك القرون.

أُطفِئت الأنوار، لتهوي أجفان مارغريت، ومع كل هنيهةٍ تمُرُ، يُعيدُ صوت الموسيقى الخافت إيقاظ الأجفان، التي ما تلبث أن تتحرّك لتعود إلى مُستقرّها، ومارغريت دائماً في غفوةِ النّوم والنّعاسُ يُداعبها، غير أنّها لم تعُدْ تسمع الموسيقى،

التي بدأت ترحلُ عن أُذنها شيئاً فشيئاً. وما هي إلاّ طرْفةُ عينٍ، حتى رأتْ شومبيري، وإذ بنهرها ماثلٌ أمام عينيها، إنّها تشمّ رائحة شومبيري في عُمق حاسة الشم. ولكن "بورجي" تبدو خالية إلاّ من طيفٍ يلتحِفُ السواد.

وقبل أن تسأل من الأوحد الواقف بالبُحيرة، عاود صوت الموسيقى الخافت مُداعبة مسمعها، ومعه شيءٌ من أنين والدتها، لتتمنى مارغريت في لحظات غفوتها هذه أنْ يكون أنين الأم أنين إرهاق ليس إلاّ.. ومع هذا التّمني، رغبةٌ في العودة بأحلامها إلى بورجي، التي لم تكتمل صورتها بعدُ... لتعود إلى بورجي حقّاً مستلذةً نومها وحديثها لمن هو واقف.

• مع استيقاظها الأول قبيل الفجر، أخرجت من حقيبتها التي تحوي هدية لامير سيجارة، عساها تُهدّئ روعها. وجاء في خاطرها مع إشعال أول جمرةٍ في السيجارة أن تكتب ما رأتْه في طيف منامها، إلى من يهمّه الأمر، إلى لامير، فهو من بواسطته رأت المخطوطة واللّوحة... وها هو من وقف على البحيرة ذكّرها به.

• لامير، الذي غادر دار الشرطة الباريسية وقد يُبلّغ عن ضياع هاتفه الأنيق، يسارع إلى محطّة القطار مع ليلة الميلاد متّجهاً إلى شومبيري... عبر أحياء باريس التي تغريه بالتّجوال وسط زحمة النّاس التي لا تنتهي، وفي غمرتها أحلام الأطفال الذين لا تخلو أياديهم من حمل الهدايا التي تحفظ الذّكريات وتأوي السّرور...

في وسط كل هذا، لا يجد لامير ما يحمل؛ بعدما خبّأ مخطوطاته الصغيرة عن العيون، إلاّ جريدةً من جرائد المساء، علّه يُشْغل بها نفسه في طريقه - وهو الوحيد دوماً - إلى العودة.

ما كاد يجلِسُ في المحطّة الصغيرة الباردة، حتى بلغ مسمعه قدوم القطار السريع. وها هو يأخذ مكانه، مُتذكراً أنّه قبيل أكثر من يومين كانت مارغريت بجانبه.. لينظرَ متأمِّلا من خلال نافذة القطار، الذي بدا كنسمة هواءٍ لم يستشعرها لامير في سير القطار هذا. وبدأ يُسأل نفسه عنها:

- كيف حالها يا تُرى؟

مارغريت، التي استيقظت مع آخر يوم من 2007 تأملُ أن يُعيد البسمة إلى أمّها، لتُنسيها مشاق السفر والمرض وأنين ذلك الخبر.

لتُقرّرا أخيراً أن تقضيا سوياً هذه الأيام التي كانت نحو الشرق، هنا في قلب **طولون**. لتخرج وفي يدها رسالة عيد الميلاد المجيد مُهنِّئةً لامير كما وعدت، وكما جرت عليه عادة الفرنسيين... ومع خطواتها التي تمشي الهوينى، جريدةٌ صباحية ترافقها.

لتنتبه بعد بضع خُطواتٍ إلى عنوان الصفحة الأولى: (الإرهاب له جذور حتى مع الإبداع).

وأسْفله شيءٌ ذكّرها بحافة اللّوحة التي تركتها عند هيينا، صورة عريضة أذهلتها بأكثر ممّا أذهلها حديث الدكتور جولاص..! وعلقت بذاكرتها في هذه اللّحظة كل الأسماء التي عرفتها: هيينا، فيناس،... المكتبة.. نور. ولم تجد بداً من إرجاع رسالتها التي أودعتها في البريد والمُتّجهة إلى لامير.

لامير، الذي يحمل بدوره الجريدة ذاتها، لم يستوعب إصرار القائمين عليها على نشرها، وقد تذكّر أنفاس الشّعراء والأُمراء التي ما زال الزّمن يختزن معاناتهم.

الزّمن الذي رحل بـ روان وبيتر حيث اللأّعودة.. اللأّعودة بدأت معها في الثاني من جانفي، حينما قررا أن يُغادرا إلى يورك، حيث أُخِذَتْ روان من بين يد بيتر بثمنٍ بخس، مثلما بيع أمثالها في سوق آيسبيرغ؛ ليُغادرها بدوره وعينه على يورك الأمريكية، تاركاً لها ذكريات إجابته حين قال:

- الحب لا يكفي وحده، إنْ المرء يحتاج للكثير من المال... كلانا فرّ من الكنيسة، وكلانا لا يُريد الرّجوع إليها.... مُطلقاً.

اختزلت روان ما في قلبها - وقد بيعت للإنجليز - ولم تجد لتُرضي غريزة الهروب من سجن روفلاب إلاّ مُحاولة الهروب ثانيةً... ولكن بحيرة بورجي، كأنّها رغم غزو الجليد لها في انتظار جسد روان، وإلى الأبد، لتترك روان لوحةً أخذتها من كنسية آيسبيرغ، لتُمسي ألوانها العربية التي تخيّلها ريموس، لتُباع في صفحات جرائد باريس.

باريس التي غادرها لامير نحو شومبيري.

توجّهت الخطى من جديد إلى شومبيري، وهي تحمل جسد لامير، الذي تاه في غياهب الزّمن حينا، وفي واقعه المعايش حيناً آخر.. ها هو كما جاء من بلده الأم، يسير والأسئلة تُلاحقه، وصورة الجريدة التي نشرت الحيرة الانهزامية في أعماقه تكاد تُكبّله، لتطرح عليه دوماً أسئلته الدّفينة:

- أقدَرُنا أنّ ملامحنا عربية... أم أنّه غير مرغوب في أرواحنا... أم..؟؟؟

أسئلته العديدة ما عادت تشفي غليله من تلبُّد الجو المحيط به، والذي أمسى مُشوّها مقيتا... ولكن ها هي مارغريت، وها هو فيناس، وأولئك الذين استجمعوا معه ذكرياته الجميلة.. مازال أمثال هؤلاء سنده في ثورته على الفوبيا الفرنسية، وهم - بالتّأكيد - عونه على التّجوال هنا وهناك بإحساس الدّعة والهدوء، الذي ما فتئ يُرافقه - وقد عايشه منذ الصبا - وهو يعود إلى شومبيري.

قدر لامير أن يركب القطار، ومن ثمّ الحافلة، وكأنّ ساعات ركوبه وسائل النقل هذه فاق حجمها كل تلك التي سافر فيها في السنوات الثلاث الأخيرة... ما كان يقوى على الخروج من دائرةٍ تُحيطُ بـ (شومبيري، ماكون وجرونوبل).

عاد وشومبيري تبدو مع العام الجديد مثلما عهدها، لتذهب به خطاهُ - دون وعي - إلى العزيز عزيز، وقد طفتْ مُكالمته الأخيرة على ذاكرته، رغم أنّها ذكّرته بهاتفه الذي بلّغ الشرطة الباريسية عن ضياعه - أو سرقته - وقد فارقه على ما يبدو إلى الأبد. وفي جوٍّ غير ذاك الذي ودّع به شومبيري منذ أيّام، وجد لامير عزيز وحيداً مع ساعة الزّوال المملة، مُهدياً إليه التّحية المتعبة:

- كيف حالك يا عزيز؟
- أهلا لامير. عودةٌ ميمونة!... ما هذا الغياب؟

أجاب لامير بسرعة وتنهُدٍ:

- رحلةٌ جِوارية! غيّرت بها الجو، رغم قلّة ذات اليد!

ليسكت مُستذكراً في قلبه قِلّة المال الذي بالكاد سيكفيه للأيام القادمة، يبدو أن منحته التي لم تنتظم مؤخراً في طريقها للتّأخر على غير العادة، ليُجدّد سؤال عزيز:

- أخبرني هل من جديد؟

تقدم عزيز من هذا الأنيق ذي الصوت الذي أهدى لـ مارغريت أشجى الألحان، مُجيباً:

- إنّها رسالة.. (ليهمس في أُذنه)... من نور!

تقدم لامير، حاملاً خُطوط نور الملفوفة في الرّسالة البُنّية، وقد ذكّره الظرف برسائل الإدارات.

وضع لامير "المكتوب" في جيبه، تاركاً قراءته في ساعة التَأنّي فيما بعد... عاد بخطىً شديدة الثّقل، وحول فكره وجسده أصداءٌ مُتعبة من السّكون القاتل، غير تلك التي استشعرها وكان يأملها؛ وكأنّ غرفته البعيدة - نوعاً ما - عن عزيز، تدعوه ليستلقي في فراشه، مثلما استلْقى مع قدومه إليها بعد عامٍ من اكترائه لبيت أغلى من طاقته المالية، وأكثر خُلّواً من أحياء شومبيري في أُمسيات الشتاء.. ليصل نحو استراحةٍ تُنسيه كلّ التّراكمات التي صاحبته في الآونة الأخيرة.

استلقى لامير في سرير الوحدة، فاتحاً ظرف نور، ومع هدوء نسمات المساء التي ازدادت بروداً، بدأ لامير بتصفح الأسطر العديدة، التي باح بها صديقه. أسطرٌ أخذت

من زمن لامير الكثير من الدّقائق، ليتنهّد قبيل إنهاء آخر سطرٍ منها، قائلاً في حيّز القلب الذي يأوي نور في أوسع ركنٍ فيه:

- أتراك أحسنت اختيار النّهاية يا لامير؟!

وعادت مع هذه اللّحظات ذكريات صحبتهما، ورُفْقتُهما وحديثهما، وملامح الانزواء التي تتبدّى على نور من حينٍ إلى حين، رغم روح الإبداع الكامنة في أنامله التي خطّت له هذه الأحرف... لقد غادره نور، نحو مجهولٍ آخر. مجهولٌ غيّب - من قبله - من أحاطوا بالأمير العربي من أمثال روان، التي تركت بعد رحيلها إلى سماوات الرّحمة اللّوحة طافيةً في سطح بحيرة يورك البريطانية، ليحملها من مرّ بالبحيرة أوّلا! من مرّ بمأساتها لا يدري من حملها، ولن يدري ما يفعل باللّوحة، التي ستظهر بعد قرنٍ ونصف القرن في يوميات الدّانمارك وجرائد باريس وبعْدها؟... لا أحدٌ يدري... كلّ ما يدريه لامير أنّ الكُل من حوله رحل أو كاد. وها هو يهمّ بالنّوم لا يجول في خاطره إلاّ الرّحيل.

استيقظ لامير في الثّالث من جانفي، مُتْعباً من التّفكير والسّفر، والعرق يتصبّبُ منه، من بقايا المنام الأخير الذي شاهده، منامٌ ليس فيه من صورة غير وجه والده، الذي لم يقُل له سوى بضع كلمات:- أما ترى - بُني - على الرّأس شيباً؟

كأن بوالده يقول: لقد كبرت يا لامير.. العمر لا ينتظر، وشريكة العمر كذلك!

حمل أغراضه، مُتناسياً على مضض كلّ ما رافقه من إحساس، ليأخذ طريقه نحو شومبيري وطُرقاتها، ومع أوّل خطوةٍ له من غرفته إلى الخارج، ها هو جون ساعي البريد يُنادي عليه...

أخذ لامير منه الرّسالة، وإذ به حين فتحها، يشتم منها رائحة مارغريت. ليبدأ القراءة:

عزيزي لامير،

وصلت حيث وصل قلبك. حيث وشاح الكنيسة الذي كنت ترتديه، لتلج إلى الزّمن الجميل. وها هو عطرك ما زال مختزناً في القرون العتيقة... وها هي آثار حذائك اللاّمع الذي طالما أغرى الزّملاء لا تزال مُلتصقة في المهاد الرطب لبحيرة "بورجي"... بل ها هي بقايا قُصاصات أوراقك، التي ما فتئت تفاخر بأصالتها على جانبي البُحيرة، والتي تركتَ شيئاً منها.

ولا تتفاجأ بقولي إنّ ما أكتبه لك ما هو إلاّ حُلم، ليس إلاّك من يُدركه... نعم شاهدت الأمير رضا وهو ينادي باسمي على بحيرة "بورجي" وقد مر شريط ما جرى له كلّه أمام عيني، شريط من 1848 إلى 1852، قائلاً لي: أنت مشكاة "فارتي" وأتوق أن أرى فيك ذلك الشاعر الذي تتمشي رُفقة من تركتُ من أحفاد على ذات الأرض التي خَطاها، أتوق إلى سماع صوته الرّخيم و...

ما كادت كلماته تتواصل، حتى خطوت خطوتين، كأنّي نسيت إحضار شيء، ولكن بمجرّد ما وطئت قدمي الأرض بأوّل خطوة، حتى ما عدت أفقه قول الأمير، وكأنّ صوته أمسى سرياليٍ لا بيان فيه... ولكنّني عُدت متناسية ما خطوت لأجله ليعود صدى الأمير مثلما كان جليّاً واضحاً. فأدركت أنّه في جانبي البحيرة تُذوب كلّ فروق لغات الدّنيا...

أغلق لامير رسالة مارغريت وهو يهمّ - في آخر أيّام عطْلته الشتوية - بالذهاب إلى بورجي، عساه يستنشق نسيمها الذي أمسى حافظاً لذكرياته الذهبية.

انتهى